إلى القارئ

بهذا العدد تنتهى السنة الثامنة من حياة مجلة « الفكر » ، وفى مثل هذه المناسبة ـ وخاصة بعد ظهور ثمانين عددا فى مستوى مشرف اجمالا وفى الموعد المكتوب دائما ـ لا تتمالك أسرة المجلة من الشعور بالاعتزاز والفخر ـ والارتياح أيضا ـ ، رغم ما أخذت به نفسها ـ منذ نشأة المشروع ـ من حرص على التواضع ونكران للذات وتوق مستمر ، عنيد ، الى الارقى والافضل ، هى أصول اختارتها اختيارا ، وارتضتها لعملها الصامت من أجل المساهمة فى انبعاث الثقافة القومية ، رائدها : ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل..

نعم ، نشعر فى الوقت الذى نتخلص فيه ـ نسبيا ولحين ـ من مشاغل التحرير وأتعاب الطباعة والتصحيح والتوزيع ، بما يشعر به الوالد يشمل مولوده من يومه الاول بالعناية المستمرة ويضحى بجميل أوقاته وريعان شبابه فى سبيل صحة « فلذة كبده » والتدرج به الى عنفوان البشرية وكمال الانسانية .

فلعلنا نظفر بمعذرة قرائنا الافاضل الذين لم يتعودوا منا هذا الفيض من الوجدان ، ونحتفظ بعطف الذين « عاشروا » هذه المجلة وأسرتها منذ ستة وتسعين شهرا عرفوا اثناءها معرفة اليقين ما تكبدناه ـ ولا نزال ـ من مشاق ، وقدمناه من تضحيات ـ مختارين لا مضطرين ـ قبل نجاح المشروع من الوجهة المادية، وسنوات قبل الحصول على بعض الاعانات والاشتراكات الرسمية (نثبت هذا للتاريخ ولقوم أصيبوا بتهافت الذاكرة او انخدعوا بأقاويل بعض الحاسدين ساءهم ان نجح غيرهم حيث عجزوا !) ، ولعلنا نستبقي بل نوطد الثقة التى وضعها فينا داخل تونس وخارجها جمهور المثقفين عامة والغيورون على شؤون الثقافة فى هذه البلاد خاصة ، فنستقبل السنة القادمة بحول الله ونحن أقوى ما نكون عزيمة على مواصلة العمل الصالح ، وأقدر ما نكون توفيقا فى الدنو من الاهداف السامية التى لم نزل نسعى اليها .

والحق أن نضال رجال « الفكر » من أجل البعث الثقافى المنتظر والتجديد المذهبى المأمول ما زال فى البداية ، ولا بد من روح الابداع والابتكار والخيال الخلاق ، ولابد كذلك من المثابرة فى العمل والمزيد من التأمل فى الواقع القومى المتطور وتحليل الاوضاع المتقلبة لتبين الاتجاه المذهبى الواضح ، الواجب الوجود ، لكى يندرج المصير الاجتماعى والاقتصادى الذى تتوق اليه الامة وتضع دعائمه ولبناته بعرق الجبين ، فى الاطار الفكرى والحضارى المنسجم مع أصالة التربة وعبقرية القوم ، ويكون فى مستوى أبعادهم الانسانية .

هو النضال المقدس ، نوجه اليوم نداء جديدا لجميع رجال الفكر وحملة القلم كى يطلبوا شرف المساهمة فيه ، فهذه المجلة مجلة كل الصادقين المخلصين ، لا يجمع بين أفراد أسرتها سوى التشبث بالمثل العليا والايمان برسالة هذه الامة فى المجال الفكرى والغيرة على الآداب العربية ومستقبل الثقافة بهذه الديار .

ومهما يكن ، فانا على العهد دائما ، مطمحنا ارضاء الضمير وعروتنا الوثقى رسالة المفكر الاصيل والاديب الحق !

الفكر

المكانة الحقيقية للفرد التونسي في المجتمع

بقلم : الدكتور عبد المجيد رزق الله

لا يزال موضوع علاقة الفرد بالمجتمع محل عناية المفكرين السياسيين من اقدم العصور الى يومنا هذا . وهاته العناية تحاول ضبط القيمة الحقيقية للفرد فى المجتمع . ويمكن تحديد هاته القيمة بالتوازن والمعادلة بين الحقوق والواجبات .

الا أن هناك ملاحظة مبدئية . وهى انه لا وجود لهاته القيمة ولا لهذا التوازن وهاته المعادلة الا فى نطاق النظام الديموقراطى .

ومعلوم ان النظام الديموقراطى هو نتيجة لتطور عميق لمفهوم الحكم فى المجتمعات . وقد مر الحكم من الملوكية المطلقة الى الملوكية المقيدة بالدستور فى بعض الاحيان والى النظام الجمهورى البحت فى غالبها .

كما مر أيضا من الديموقراطية السياسية أى « حكم الشعب بواسطة الشعب » الى الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية أى « حكم الشعب بواسطة الشعب ولفائدة الشعب » أيضا .

ومن هنا تولدت فكرة التوازن بين الحقوق والواجبات . وهى ناتجة عن مشكلة تساكن البشر وتعاشرهم . وهاته الفكرة كانت ولا تزال الشغل الشاغل للمفكرين السياسيين والاجتماعيين من افلاطون الى الفارابى الى ابن خلدون الى روسو وغيرهم .

الا ان أهم ما يمتاز به التوازن بين الحقوق والواجبات فى عصرنا الحاضر هو ظهور فكرة العدالة الاجتماعية الى جانب فكرة الحرية .

وبعبارة أخرى يمكن القول بان القيمة الحقيقية للفرد فى المجتمع **هى رضاه بالحد من حريته لفائدة المجتمع** الذى يعيش فيه . ويتحقق ذلك من طرف المواطن الصالح بدافع حب الخير لغيره من المواطنين وبدافع روح التضامن معهم . كما يهدف ذلك الى مراعاة المصلحة الحقيقية الاجلة التى لا يمكن أن تضمن الا فى نطاق مجتمع مستقر تسوده العدالة والمساواة لا التطاحن والظلم والاستبداد والاستغلال ...

وبعبارة اخرى أيضا يمكن القول بان القيمة الحقيقية للفرد فى المجتمع تحصل من **تغلبه على النفسية الفردية وتشبعه بالنفسية الاشتراكية** •

فبينما تهتم الفردية بالفرد وتجعله مبدأ لها تهتم الاشتراكية بالجماعة والجماهير •

وجميع المفكرين الذين حاولوا توضيح مفهوم الاشتراكية قد الحوا فى جعل الافكار والاشياء جماعية وفى استحالة الانفراد والانعزال بحيث تحل روح الجماعات محل روح الفرد والقاعدة الاجتماعية محل الارادة الشخصية •

واهم ميدان ترمى فيه الاشتراكية الى الحد من الحرية هو الميدان الاقتصادى

وفعلا فان الاشتراكية لا تؤمن بالحرية الاقتصادية وانما تقتضى تنظيما قانونيا دقيقا وتجعل الانتاج والتوزيع خاضعين لارادة دنيوية مفروضة ومدبرة لا الى نظام الهى عفوى •

وعلى هذه الفكرة يستند « دوركهايم » فى تعريفه للاشتراكية اذ يقول : « ان الاشتراكية نظرية تطالب بربط الوظائف الاقتصادية كلها او بعضها بمراكز الادارة والتفكير فى المجتمع • »

وتبريرا لهذا التنظيم العملى التطبيقى ينكر الاشتراكيون صلوحية النظام الطبيعى نفسه او القوانين الطبيعية •

فيرى كارل ماركس مثلا ان القوانين الطبيعية تسوق المجتمع بصورة عفوية الى مأزق يصعب الخروج منه ويتجلى هذا المأزق فى حشد القوى الانتاجية ورؤوس الاموال من جهة وفى حشد الجماهير فى طبقة العمال من جهة أخرى • ولا يمكن الخروج منه الا بانقلاب يجعل من قوى الانتاج ملكا للجماهير ويقضى على تطاحن طبقتى الراسماليين والعمال •

فالاشتراكية من هذه الناحية عبارة عن نتيجة ضرورية ومحتومة لتطور طبيعى •

ثم ان الاشتراكية فى زماننا تحاول مقاومة مفهوم النظام الطبيعى باقامة الدليل على أن المصالح متناقضة لا متجانسة كما تحاول تعويضه بنظام تعطى فيه الاولوية للمصلحة العامة لا للربح الخاص •

وتقول ان غاية الفرد فى المجتمع الحاضر هى الحصول على أكبر ربح ممكن لاكثر انتاج ممكن • الا ان الوصول الى الربح الاكبر انما يكون غالبا بتنقيص

الانتاج وتحديده وبالتالى برفع الاسعار وهذا مخالف للمصلحة العامة • ولذا نجد الافراد والجماعات يتبعون عمليا سياسة تقليل الانتاج وذلك فى سبيل رفع اسعار المنتوجات فيتلفون البن فى البرازيل والالات والسيارات فى الولايات المتحدة الامريكية مثلا ••• ولذا يجب تغليب المصلحة العامة على الربح الشخصى •

⁂

وبعـــد ،

فما هو مفهومنا فى تونس اليوم للقيمة الحقيقية للفرد فى المجتمع ؟

للاجابة عن هذا السؤال لا يمكن انكار تاثر نظام الحكم وبنيان المجتمع بتطورات مفهومهما على ممر الزمان وفى مختلف الأصقاع •

غير أن تونس لم تقلد فى ذلك تقليدا أعمى ما وقع فى غيرها من البلدان فقد انطبع نظامها بواقعها وخاصة بواقع كفاحها التحريرى من الهيمنة الاجنبية • كما انطبع ايضا بواقع انكبابها على مقاومة التخلف وقلب الاوضاع بغية تحقيق التقدم والازدهار •

وهناك حافز اول تمكنت بفضله تونس من الانتصار فى معركة الاستقلال وستتمكن بفضله بحول الله من الانتصار فى مقاومة التخلف • وهذا الحافز هو **الشعور بالكرامة** • ذلك الشعور الذى ما فتئ الرئيس الجليل الحبيب بورقيبة يعمل على غرسه فى نفوس الدستوريين خاصة والمواطنين عامة اثناء الكفاح التحريرى بالامس او اثناء تجنيد القوى الشعبية للخروج من التخلف اليـــوم •

كما أن هناك حافزا (ثانيا) أصبح عقيـدة فى نفـوس التونسيين بفضل الثبات والعمل المتواصل للعناصر الدستورية الذين يعملون بهدى من المجاهد الاكبر وهو اعتبار **الوحدة القومية فى اعلى سلم القيم** مهما كانت الظروف ومهما كانت التكاليف •

وقد نتج عن هذين الحافزين اللذين أصبحا مبـدأين أصليين فى فلسفة الحياة التونسية اقرار نظام مستمد من الواقع التـونسى البحت • كما نتـج عنهما أيضا السير فى طريق فرضتها حاجيات هذا الواقع وسهلتها امكانياته

وهذا النظام هو نظام ديموقراطى واشتراكى فى آن واحد • ولكنه مطبوع بالطابع التونسى البحت • وهو ما ننعته **بالاشتراكية الدستورية** •

ونجد اصول هذه الاشتراكية الدستورية فى القانون الاساسى للدولة نفسه الا وهو دستور الجمهورية التونسية الضابط لحقوق المواطنين وواجباتهم على حد السواء ٠

فمن الناحية السياسية ينص الدستور بكل وضوح على مجموعة من الحريات والحقوق تصبغ عليه ميزته الديموقراطية ٠

فهناك اقرار السيادة لافراد الشعب التى يمارسونها عن طريق الانتخاب العام الحر المباشر السرى (فصل 3 و 19 و 40 من الدستور)

وهناك اقرار المساواة والحريات العامة والحقوق الفردية والجماعية لا السياسية منها فحسب بل الاقتصادية والاجتماعية أيضا كحق الصحة والتعلم والعمل (توطئة الدستور) ٠

الا ان الدستور ينص ايضا فى توطئته على وجوب استخدام ثروة البلاد لفائدة الشعب ٠

ووسيلة ذلك الحد من حقوق المواطنين لازدهار الاقتصاد وللنهوض الاجتماعى ٠

ولهذا الغرض ينص الفصل السابع من الدستور على ما يلى بالحرف الواحد:

« **يتمتع المواطن بحقوقه كاملة بالطرق والشروط المبينة بالقانون ٠ ولا يحد من هذه الحقوق الا بقانون يتخذ لاحترام حقوق الغير ولصالح الامن العام والدفاع الوطنى ولازدهار الاقتصاد وللنهوض الاجتماعى** »

ومن هنا جاء اختيار تونس لسياسة الاقتصاد الموجه وسلوك سبيل التخطيط بغية تحقيق توفير الانتاج مع العدل فى توزيعه ٠

وبعبارة أخرى فقد اختارت تونس اليوم الاشتراكية كمذهب لها فى الحياة ولكنها اشتراكية تونسية بحت تستمد مبادئها من مبادى الحزب الحر الدستورى الاصيل ٠

وتمتاز هذه الاشتراكية عن غيرها من الاشتراكيات الاخرى من جملة ما تمتاز به بالموازنة والمعادلة بين حقوق الفرد وواجباته أقصى ما تكون الموازنة والمعادلة ٠

فهى تقاوم الحيف والتفاوت وتسعى الى تمكين كل المواطنين لا طبقة دون أخرى من الصحة والتعليم والمسكن كما تسعى أيضا الى مقاومة البطالة وتمكين المواطنين من وسائل العيش بالعمل والارتزاق ٠

وهى ترمى الى توفير كل الامكانيات للفرد لبلوغ حياة الرفاهية والازدهار

وبكلمة موجزة فان الاشتراكية الدستورية تهدف الى تحقيق العدالة الاجتماعية ٠

والاشتراكية الدستورية تتوخى فى سبيل ذلك الحد من الحرية الاقتصادية المطلقة وتنظيم الاقتصاد لفائدة الجميع ٠ وذلك انها كبقية الاشتراكيات الاخرى لا تؤمن بالحرية الفردية فى ميدان الاقتصاد لسببين اصليين :

اولهما الحيف والاستغلال كما يوجد ذلك فى النظام الحر الرسمالى ٠

وثانيهما سوء التصرف كما يوجد ذلك عن جهل او تواكل وتقاعس فى المجتمعات المتخلفة ٠

غير ان الاشتراكية الدستورية خلافا للاشتراكية الشيوعية تؤمن ايمانا بالفرد وبعاطفة حب الخير فيه وبقدرة عقله على فهم مصلحته الحقيقية ٠

ولذا فهى تنبذ العداوة والشحناء والتطاحن التى تثيرها روح الاستغلال والمنافسة ٠

كما تسعى الى احلال روح الاخوة والتعاون واعتبار المصلحة العامة الجماعية فوق المصالح الخاصة الفردية ٠

وتتوخى فى ذلك سياسة الاقناع بالمناقشة الحرة النزيهة ٠

وخلاصة القول كما يقول الرئيس الجليل الحبيب بورقيبة :

« كانت القاعدة الاساسية التى توجه الفرد فى أن الفرد لا يهمه الا شخصه وان الانسان الفرد غاية فى ذاته ليس عليه الا أن يعمل لصالحه الشخصى ٠٠٠

والواقع ان الشخص يعيش ضمن المجتمع ولا يستطيع أن يحافظ على حريته ويتمتع بها الا اذا كانت هناك قوة تحميها أعنى قوة الدولة التى هى فى الحقيقة قوة المجتمع وهكذا نجد انفسنا أمام ضرورة التوفيق بين الحرية التى هى ضرورة للفرد ولابد من ضمانها له لكى يؤدى للمجتمع واجبه ويتمتع الفرد بفرحة الحياة وبين عدم الاضرار بالغير وخاصة بالافراد الذين ليس لهم من الامكانيات ما للاخرين ٠٠٠ »

الدكتور عبد المجيد رزق الله

خواطر في الشعر والخيال

بقلم عامر غديرة

لم ازل منذ زمن بعيد افكر فى ماهية الشعر على وجه العموم وفى مميزاته ومشاكله عند العرب بوجه خاص ولم يزدنى الاطلاع على محاضرة ابى القاسم الشابى عن « الخيال الشعرى » الا شغفا بالموضوع وميلا اليه • وانى لاجدنى اثناء مطالعاتى الآن مترددا امام النتائج المتناقضة والآراء المتضاربة حسب الظروف والكتاب ارفع من منزلة الشعر العربى احيانا واضع منها احيانا اخرى واثبت وجود خيال عميق عند العرب تارة وانفيه اخرى • ولقد صادفت فى هذه الايام الاخيرة شاعرا عربيا صديقا فى بلد عربى شقيق يشكو ضعف الخيال فى ما بين ايدى العرب من انواع التعبير ووسائله ويحاول فى الوقت نفسه ان يرجع الى الشعر العربى القديم ما نسى عنه او اغتصب منه سعة ميدان وتفننا فى التعبير وفاتحة لكل فن • ويتفق ان كان هذا الرجل فى آن واحد من ذوى المسؤوليات السياسية بالخرطوم ومن اهل الادب المولعين بالفن وهو الاستاذ محمد عثمان يس • فشجعتنى هذه المصادفة على العودة الى ما قد ذهبت اليه عند تقديمى لديوان « النغم الحائر » للهادى نعمان فوددت ان ابسط بين يدى القارىء بعض الخواطر حول مفهوم الشعر اولا وحول الخيال ثانيا ثم ان اقدم له بعض ما صنعه الاستاذ محمد عثمان يس مما يتصل بتوسيع ميدان الشعر العربى وبفتح افاقه • ولقد خطرت لى هذه الخواطر على سبيل الحدس والشعور الغامض فجاءت فى آن واحد مبعثرة فى غير ترتيب وكذلك فى قالب القواعد والاحكام لانى واثق من صحتها وان لم اجد لها برهانا دائما •

عندما يحاول النقاد تحديد معنى الشعر يلتجئون كثيرا الى التشابيه المحسوسة المقتبسة من عالم الجن وعمليات السحر وما اشبه ذلك • يلتجىء « اندرى جيد » مثلا فى مقدمته لما اختار من الشعر الفرنسى الى صورة من « الف ليلة وليلة » ابدعها الخيال الشرقى العربى وهى صورة ذلك الجان الذى كره أن يحبسه اناء فتكيف فى اشكال شتى واستحال نارا ودخانا واصواتا وانقلب سمكة ثم طائرا ثم اختبأ فى حبة رمان يسرع اليها ديك فيلتقطها• ويلتجىء « تيارى مونيى » ايضا فى مقدمته لما اختاره من الشعر الفرنسى الى

قريب من تلك الصورة فيقول : « ليس العمل الذى يمتاز به الشاعر هو أن يحيى فى نفسه خيالات واطيافا ليحبسها بعد ذلك فى كلمات بل انما عمله ان يفجر الخيالات والاطياف التى تحبسها الكلمات »· فلئن كانت كل صناعة انما هى قلب وخلق واخراج فالشعر هو اقصى ما تصل اليه الصناعات البشرية من مظاهر القلب والخلق والاخراج · يصنع العامل بيديه من المادة الخام شيئا مضبوطا محدودا تظهر فيه المهارة والبراعة ويصنع الشاعر من مادة خام اخرى شيئا آخر محصورا محدودا ولكنه يطير شعاعا ويتسرب امواجا ويتكيف خيالات واشباحا واطيافا · ولقد راى ابن الرومى ذلك اذ وصف احد عماله بالسحر والشعوذة والخلق :

يلقى العجين لجينا من انامله   فيستحيل شبابيكا من الذهب

مثل الشاعرمثل الساحر الذى يريد انيخرق حدود المعتاد ومثلهمثل كيماوى القرون الوسطى الذى يريد ان يجعل من الحديد ذهبا· فعملية الخلق الشعرى انما هى عملية خرق وسحر وتوسيع يريد بها الشاعر ان يفتح ثلمة فى عالم الشهادة تطل على عالم الغيب وذلك بابسط الادوات واعمها واكثرها انتشارا بين الناس وتداولا وهى اللغة ·

وهنا يظهر التناقض : كيف يستطيع الانسان باكثر الاشياء استعمالا وابتذالا ومشاركة ان يحدث اكثر الاشياء اختصاصا واختلافا وعمقا · فباللغة العربية المشتركة وبالالفاظ العربية المستعملة يوميا يحدث الشاعر شيئا خاصا شخصيا يختلف به عن غيره ·

ولهذا للغوص على اعماق الشعر والوقوف على خباياه يجب معرفة الحد الادنى من العاميات ومن الاطار المشترك·وكانى بهذا العلم ينقصنا نحن وارثى اشعار العرب فى القرن العشرين فيخيل لى انه يعوزنا معرفة السر الذى يكشف لنا عن كنوز الشعر العربى فكاننا فقدنا مفتاحا من ذهب يفتح لنا ما اغلق من جنات شعرنا او طلسما بلاغيا يحيى لنا ماامات من مشاعر وخيالات·

فاوكد الواجبات ان نتساءل عن ماهية الشعر العربى وان نتعمق فى تحديده وفهم عناصره ومكوناته لا أن نتمادى بلا انقطاع فى محاكاته والنسج على منواله · ان بين هذا العمل وذاك الفرق بين الاجتهاد فى العمل لابقاء النسل وتخليد الجنس وبين الاجتهاد فى العملللتوسيعمن آفاق الفتح البشرى والتمديد فى منطقة نفوذ الانسان ــ الفرق بين النحل المنتظم لدوام الخلية والمجتمع وبين البشر المتأهب لاكتشافات جديدة وفتوحات اخر ·

كنت قد كتبت (1) وما زلت اعيد ان الشعر اوسع ميدانا عند العرب منه عند الامم الاخرى فهو بداية كل فن ونهاية كل فن وخلاصة كل فن ومجمع الفنون : فيه الرقص وفيه الغنـاء ، فيه الرسم وفيه التمثيل ، فيه النحت وفيه النقش . فالشعر بضاعة العرب فهو حداؤها واراجيزها وهو بيوتها ومصاريعها وهو اثاثها وقصورها وهو طرازها ونسيجها وهو دواؤها وتمائمها .

لقد يسخر بعضنا اليوم من « قفانبك » وقد يتهكم . ولا يفهـم اعجـاب المعجبين اذ وقف امرؤ القيس واستوقف واذ بكى واستبكى واني ما اظن ان « قفانبك » اشتهرت في غير استحقاق بل ارى في شهرتها فضائل وخصالا تتصل أمتن الاتصال بماهية الشعر العربي وروحه . ولعل أغلب هذه الفضائل امحت عنا ولعل اغلب هذه الخصال غاب سرها عنا ولكن خصلة واحدة تظهر في هاتين الكلمتين واضحة بينة متبرجة للناقد وهي ان اصل الشعر العربي جعل للانشاد وللاستماع الجماعي لا للقراءة الفردية وهي ان الشاعر العربي عندما ينشد انما يقف موقف الخطيب من الناس او القائد من جوقة العازفين أو الممثل على المسرح . والانشاد تحيط به الظروف ويضبطه الاطار كالاخراج المسرحي فنرى الشاعر في قومه أو قائما في سوق عكاظ أو في المربد او بين يدي الخليفة واهل الحل والعقد حواليه فيصبح الشاعر ممثلا وتنقاد الحركة للقصيد فتعينه وتفسره كما يعينه السكوت ويدعمه الوقف احيانا فينشأ بين الشاعر والحاضرين اتصال قد يكون تجاوبا وقد يكون تصادما . ان في كل شاعر عربي ممثلا كامنا كما ان في كل رجل عربي شاعرا كامنا ان لم ينشد شعره تمثل بشعر غيره . ان كلمتي « قفانبك » توحيان مشهدا تمثيليا. نرى امرأ القيس قد ظهر فجأة على المسرح يتبعه صاحباه ويقف عـلى الاطـلال ثم يقول مبتدئا رواية حياته : « قفانبك » مثلما تتقـدم « فيدر » على المسرح تصحبها وصيفتها فتقف ثم تقول مبتدئة مأساة حياتها : فلنقف هنا ولا نواصل السير ... يتصل الشعر بالمسرح في كلا المنظرين ويتحد .

والشعر العربي مستمد من الامة موجه لها منبعه منها وغايته اليها فهو للعامة والخاصة وهو للملوك والسوقة يقتبس معانيه واغراضه من الامة العربية (اجمل القصائد الفرنسية مثلا ملهمة من التاريخ القديم والاساطير اليونانية لا من حياة جان دارك ونابليون) وينتشر ويصبح سيارا فيتغنى به الكبير والصغير والنساء والرجال . ويحفظ البيت وينسى قائله حتى ان النقاد العرب – وقد نعيبهـم

(1) النغم الحائر (المقدمة)

بذلك ـ يكتفون فى درسهم وحكمهم باحسن بيت فى المدح او احسن بيت فى الغزل الى غير ذلك . فالبيت الواحد يكفى لاحياء جو خاص ولفتح آفاق لا تفتح الا به .

الشعر العربى متصل بمستمعيه حتى ان العرب ليظهرون من مظاهر الطرب والانفعال ما يدهشنا فالعربى اذا استمع الى الشعر او الغناء طرب فبكى او قهقه او صرخ وانتحب او مزق ثيابه او رمى بنفسه فى الماء او اغمى عليه او تصدى للقر والحر يلتذ بموجات الاصوات (وهذا يذكرنا انفعالات اوائل الرومانطيقيين فى اوربا مثلا عند قراءة قصة « روسو » هيلويز الجديدة فلقد اغرق القراء فى البكاء والنحيب والعويل كما اسرفوا فى التنعم بالقراءة والتلذذ بوصف عواطف الحب). انه يوجد بين العرب المستمعين الى شاعرهم تضامن المتحزبين المصغين الى زعيمهم والصالحين المتقين المنصتين لامامهم وكما ان المتحزبين السياسيين يطلبون من زعيمهم كهربة وحماسا وكما ان الصالحين يرغبون من امامهم وعظا وارشادا فان المستمعين العرب يطلبون من منشدهم ذلك الطرب وذلك الانفعال .

فالشاعر المطبوع محبوب عند الشعب مشهور مقصود يؤيده الشعب ويشجعه (شهرة بشار رغم الخليفة) فهو متسجم مع الامة متحد معها يرثى امواتها ويمدح وجوهها ويذود عن حماها وهو فى الوقت نفسه منفصل عن مقومات حياتها مناهض لقواعد اخلاقها وآدابها فكل ما لا يباح للمرء ان يعبر عنه تجده قد لاذ بالشعر فحاز المرتبة الاولى والدرجة العليا . فما كان للصلاة ولا للزكاة مثلا أن تلهما الشعراء فيبدعوا بل كانت المرأة والخمرة من أهم مكونات الشعر العربى وانت تعلم ما كان عليه المجتمع العربى من الصلابة فى شان المراة وانت تعلم ما جاء به الدين الاسلامى من تحريم للخمر وحد لشاربها . فكانى بالشاعر يتحرر من جميع القيود فيباح له ما لا يباح للعامة ويعبر بصوت عال عما لا يستطيع ان يعبر عنه عامة الناس الا فى السر والخفاء .

لكل صانع ثم لكل فنان مادة خام منها يبدع ما يبدع بانامله . ومادة الشعر الكلام . فهل الكلام قشور فقط وغلاف واعراض تغطى مادة اخرى هى المادة الذهنية والفكرية أم الكلام هو الجوهر وهو المادة اللغوية الخالصة ؟ هذه مسالة عويصة .

واذ كانت اللغة العربية مرتكزة على اصول ثلاثية وجب المقابلة بين كلمة (شعر) وكلمة (سحر) لما بين احرفهما من تشابه ووجب ايضا قلب كلمة

(شعر) الى (رعش) حسبما تقرؤها من اليسار الى اليمين او من اليمين الى اليسار • ذلك ان لكل كلمة أشعة تحدث نوعا من الرعشة تسمى **بقشعريرة الشعر** وقشعريرة الطرب الفنى التى يشعر بهـا حتى الـرجل الغلظ الجافى عندما يسمع فى بلاد أجنبية نشيد وطنه البعيد يعزف على رؤوس الملأ • لكل شيء ولكل كائن موجات واشعة تصدر عنه وللكلم ما لغيره • انما اللغة العربية لغة سامية اعنى انها احدى اللغات التى اختارها الله للاتصال بمخلوقاتـه وليشهد بها كل نبى على قومه • وهى لغة القرآن بما فيها من بيان واعجاز • ثم ان الثقافة العربية ثقافة رواية اعنى شهادة شاهد عيـان يدرك الشيـخ الهرم فياخذ عنه سماعا وباتصال حى لا على طريق الحرف الميت• فلعل الالفاظ التى وصلت الينا نحن وارثى الشعر العربى فى القرن العشرين تضيء باشعة اقصى من بنفسجيتنا او ادنى من حمرتنا فتفوتنا وهى بين ايدينا كالماء الجارى بين انامنا او كصوت الوجه الوضاء من وراء النافذة لا يدرك • ولعل امهات الشعر العربى وصلتنا كالثلاجات الى حى منتجع يجهل الكهرباء فقد تصلح خزائن وتنفع ولكن نفعها ادنى مما جعلت له • لكل كلمة هالة شعرية خفية عسير علينا أن نظفر بها من خلال تشريحات فقهاء اللغة وحفاظ الغريب• ولن نفهم اللغة حق فهمها الا اذا كانت اللغة شائعة بيننا متغلغلة فينا محترمة لدينا فلعل حظا وافرا من سر المادة الخام قد غاب عنا •

وللغة العربية موسيقى خاصة لوفرة حروفها الصحيحة وقلة حروف العلة فيها • وانك لتجد فى تكرار الياء الممدودة مثلا حنانا خاصا وجوا غريبا • ثم ان مشتقاتها معروفة مقررة مقدرة قد يسبق السامع اليها قبل الانشاد وكذلك بدء القصائد معروف متوقع فيه الواو المتبوعـة بمجرور وفيـه المثنى الغنائى (علانى فان بيض الامانى •••) • تلك امور مشتركة بين الناس تحدث بين الشاعر ومستمعيه انسجاما واتحادا •

فمن تلك الالفاظ المتداولة ومن تلك الاصوات المعروفة ومن المادة الخـــام المشتركة يصوغ الشاعر شيئا جديدا وينظم اشكالا جديدة غايتها الاذن والسماع لا القراءة (القوافى العربية مبنية على السماع لا على رسم الكتابة بخلاف ما يوجد فى الفرنسية مثلا) وتنشأ انغام مرتبة واصوات منظومة تنوم المستمع اليها او قل تجعل المستمع فى حالة اصغاء كامل وقابليـة للتاثير كاملـة • كالمسلم يدخل المسجد على وضوء منصرفا عن عالم اللهو مقبلا على عالم الطهارة او كالحية تخضع لموسيقى الحواء فيدخل المستمع فى حالة نوم مغنطيسى ويذعن للمنشد ويثبته فالشاعر اخوه ومثيله وابن جلدته فلئن اتى ببدعة فهو قابلها•

وانك لتجدن فى قالب القصيدة الطويلة على بحر واحد وروى واحد رتابة ووحدة نفس من شانهما ان تريخا النفس وتجعلاها فى انتظار امر ذى بال فكانهما تحدثان سكوتا شائعا فى الجمع كالسكوت الذى يسبق التصريح الخطير كحالة السكوت التى يشفق الانسان فيها مما يليها ويرغب فيه .

فاطار القصيدة معروف والبحور معدودة والقوافى محدودة واغراض الشعر مقررة مقيدة ومع ذلك - او قل لاجل ذلك - يستطيع الشاعر ان ينسج على منوال من سبق وان يخلق شيئا جديدا فيتصل بالاغلبية ويتحد معها ثم ينفرد بشخصيته فيفتح لك وله آفاقا جديدة قد تخالف حتى ما قصد والنحو الذى اراد اولا .

من بين معانى الشعر العربى معنى يسير أن نستخر منه وهو الوقوف على الاطلال ولعل فى هذا المعنى مدى بعيدا فيه غوص على الماضى المنصرم واتصال بحياة اولى من قبيل تناسخ الارواح وحنين الى الوطن ومعنى الترحال والهجرة ، ترحال اقتصادى

ذرينى اكثر حاسديك برحلة الى بلد فيه الخصيب امير

وترحال دينى (من هاجر الى النبى العربى - لاهدى قومى اما اطرد من بينهم واما اصلب) .

ولا يستحق معنى من المعانى درجة الغرض المستقل فى الشعر العربى الا بعد ان يظهر حيويته ويبرهن عن مكانته ان صح هذا التعبير فهو يقضى زمنا فى « التربص » قبل الدخول فى جمهرة اغراض الشعر وفنونه (استقلال الغزل واستقلال الخمرية الخ ...)

انى اعتقد انه لا يمكن اليوم تجديد فى الادب والشعر من دون غوص عميق وبحث طويل عن مكونات الادب العربى وعبقرية الشعراء العرب . فالعسير هو ان يتفهم كل جيل صاعد بكل صبر وحسن استعداد « الرساله » التى تركها له من سبقه او « وصية » اسلافه او « ميثاق » القدماء . واعسر من ذلك ان يحاول - بعد ادراك الوصية - ان يجدد بالاجتهاد لا بالاندفاع وبالصناعة لا بالمسخ وبالتفنن والابداع لا بتكسير القيود وتحطيم القوالب فحسب . ثم الامر الاعسر هو ان تحاول الاجيال العربية ان تكون حلقات متلاحمة متلاصقة توضح كل حلقة ما قبلها وتبشر بما بعدها والواقع ان حلقات عديدة منها انصرمت (6 أو 7 قرون) وان اضواء اخرى اجنبية بدلت بعض

الوانها • فوجب مضاعفة الاجتهاد لكى يضبط كل جيل مفهوم تراثه ويطهره ثم يجدد منه ويتقدم به • ولا يكون هذا العمل بالاستعداد والمواهب والطبع فحسب بل يكون بالصناعة والثبات والتفنن• انك تجد الطبع وتجد الفن وانك تجد القريحة وتجد الصناعة وقد يخفق الشاعر المطبوع ما لم يجتهد فى طلب الايقاع والانغام والاعداد والالوان والخيالات •

يشكو بعض العرب ومنهم الشابى قلة الخيال وفقره عندهم وينفيه اكثر من مؤرخ اجنبى نفيا قطعيا ويفخر أكثر من ناقد عربى بغزارته وعمقه• فلعل فتورنا خلال القرون الثمانية اوالتسعة الاخيرة ــ فى وقت تقدم اروبا واتساع ميادين فنونها ــ هو الذى ينسينا خيال بشار وابى نواس وابن الرومى وابى العلاء المعرى ثم كليلة ودمنة ورسالة الغفران والف ليلة وليلة وحى بـــن يقظان •

كان الجاحظ يستطيع من رسالة التربيع والتدوير مثلا ان يبدع خيالا وان يجعل منها مثل ما جعل ابو العلاء منرسالة الغفران او فلوبير منصلامبو او من La tentation de S^t Antoine فالكاتب يحدث بخياله صورا ولـوحات منظمة تحاكى الامور الطبيعية وترتكز على المعطيات التاريخية او العلمية او الفلسفية وتكون قصة عجيبة من حيث الفن والصناعة • ما الذى منع الجاحظ وامثال الجاحظ من تاليف القصة الخيالية ؟ تكوينهم العلمى المنتشر فى المجتمع الاسلامى دفاعا عن اللغة والدين بالتصحيح والتعديل والتجريح ؟ •

هل غادر الشعراء من متردم ؟ نعم • ان فى كل شىء ان فى كل محسوس قسماً من الغيب يبقى مستورا كامنا حتى تكشفه عبقرية مريدة أو يقدحه قادح • يقول « موباسان » فى بعض مقالاته : « لقد اعتدنـا ان لا ننظـر الى الاشياء الا وفى انفسنا ذكرى ما قيل قبلنا فيما ننظر اليه • والحق ان فى احقر الاشياء لنصيبا وافرا من المجهول »

يمر الرجل فى كل يوم أمام دار أو حانوت ولا يرى الا العادى ثم يكتشف فجأة (وخصوصا اذا صحبه اجنبى) شيئا موجودا من قبل لكنه لم يره من قبل لان العادة قد جعلته ينظر اليه ولا يراه • فالعادة تجعل الانسان يُـرى كل شىء عاديا بينما ينبغى ان نقف فى الشىء العادى على الامر الخارق للعادة• ولعل الرجل العربى الذى هو اجتماعى قبل كل شىء يستحى او يشفق من الخروج عن المجتمع اذا هو راى فى الشىء العادى امرا خارقا للعادة فيكره ان يضحك عليه قومه او ان يعتبروه ساحرا او مجنونا • فهو يحافظ على سمعته

ويهتم بما يفكر الناس فيه ويجتهد للبقاء عند الحد الوسط وعلى الطريق العادي. اما صاحب الخيال فهو يخاطر بنفسه حتى الخروج عن العادة حتى الجنون (ان من بين شعراء فرنسا وكتابها لعددا من المجانين تقدموا بالخيال الشعري تقدما بعيدا مثل نرفال)

ان طمانينة العربي تجعله يقبل ولا يبدع وان حياءه ووقاره يجعلانه لا يشارك في العاب الهزل الاجتماعية . من منا يخرج في رمضان مثلا متظاهرا في الشوارع بمظهر الهزل مشاركا جماعة اللاعبين الهازلين مثلما يصنع الاوروبيون في كارنفال ؟ انك لتشم من كلمة التنكر في الزي للرقص والهزل رائحة الانكار كان المجتمع ينكر عليك ذلك .

قلة التمثيل في المسرح وقلة الالعاب الكارنفالية في الشوارع ثم قلة الصور واللعب والخيالات في غرف الصبيان عندنا كل هذا يجعل عالم الاطفال خاليا من الخيال او يكاد . لا اظن السينما وحده يشجع على توفير الخيال لاننا نقبل ولا نخلق . يجب المشاهدة ويجب المشاركة ايضا . انما الجلوس على الكرسي والانتظار حالة قبول سلبي وتوكل على الغير لا تدرب على الانشاء والتاليف. ان في تربيتنا وبيئتنا لحواجز وعوائق تجعلنا اذا اردنا المشاركة تكلفناها .

يشكو الاستاذ محمد عثمان يس قلة الانتاج الفني عند العرب وفقر انواع التعبير عندهم فيقول : « ما زالت فنون التعبير عن خلجات النفس قاصرة في محيطنا العربي » ويلاحظ كما لاحظ الشابي وغيره التخلف والتقصير غير انه يؤمن باتساع نطاق الشعر العربي فيقول: « لانني اجد في ذلك الشعر من الاخيلة والصور الدقيقة والالوان ما يمكن ابرازه في المسرح العربي على شكل « بالية » . فهو يشعر بان القصيد العربي يحمل في طياته بذور الموسيقى ومناظر الرقص وما شئت من اصناف الفنون الاخرى فيعمد الاستاذ يس الى قصيدة بشارة الخوري في رثاء أحمد شوقي التي طالعها :

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره فسدرة المنتهى ادنى منابره

وينشدها فاذا هي تتجسم امامه مناظر رقص وتفرض نفسها عليه هكذا في صورتها التمثيلية وان كان هو – كما يقول – من اصحاب الادب والشعر لا من ذوى الخبرة بالعمل المسرحي ولا برقصات « البالية » . هو شاعر

يطرب للشعر ويتاثر به فاول ما توحيه اليه قصيدة الاخطل الصغير هي لوحات ملونة وانغام مرتلة وخطوات راقصة كان الالفاظ انفجرت شعاعا وطارت خيالات واطيافا ٠

وقسم الاستاذ يس مختاراته الى خمسة مناظر : يتصور اللوحة الاولى في جنة الخلد عند سدرة المنتهى فيظهر فيها الشاعر ومن حوله الكواعب الاتراب يرقصن ثم يقصصن شعورهن ويجعلن منها ستائر لمقاصيره ٠ ويتخيل اللوحة الثانية في الدنيا عند هجرة « الحسن » و « الاحسان » من جنة لبنان الى وادى النيل والحسن « فتاة فارعة القوام دعجاء العينين شهباء الشعر » والاحسان « شاب سمهرى طويل القامة عريض المنكبين ملء بالحياة والفتوة » ويرقصان طويلا على ضفة الجدول ويتحاوران بالرقص في معنى الفراق والوصل ويعبران بالرقص عن معنى الترحال واتعابه وعن الوصول الى وادى النيل الخصب ٠ ثم يتصور اللوحة الثالثة في مناظر الطبيعة والوحوش وقد آذنت باقتراب الكارثة واحست بان الشاعر سيموت٠ويصور المنظر الرابع احمد شوقى طريحا على فراش الموت ومن حوله « الحسن » و « الاحسان » يرقصان رقص المعالجة ويلتحق بهما الطبيب من حين الى آخر ثم « الاحزان » في شكل فتيات لابسات السواد فيرقصن رقصة الموت ٠ ويرجع بنا في المنظر الخامس الى جنة الخلد « فيرى الخلد في بهائه وجماله ويرى الحور واتراب مريم ورهط جبريل ويرى ابولو وكوبيدون يغنون وتظهر في نهاية المسرح ثريات من النور تنير الواحدة تلو الاخرى حتى تكون شكل اهرام من النور يجلس الشاعر على قمته وعلى يمينه آلهة الشعر وعلى شماله آلهة النثر ويعود جميع الممثلين فتنزل آلهة النثر من اعلى الهرم فتناجي الشاعر راقصة :

سل جنة الخلد كم ودت ازاهرها   لو استحالت عبيرا في مجاهره

ان محاولة الاستاذ يس محاولة طريفة لطيفة فيها خيال واسع شخصي وابراز لخيال واسع آخر هو خيال بشارة الخورى ٠ وهي مساهمة في الغوص على جوهر الشعر العربي وفي كشف كنوزه وخباياه وايقاد ما خمد من نيرانه ٠ لئن كانت وسائل التعبير مشتركة بين الامم متجسمة في الفنون الجميلة التي تفتخر بها الانسانية جمعاء فلقد يصيب كل فن منها امة بعينها يستانس بها ويترعرع في جوارها كالنبات في التربة التي توافقه٠ ولئن اشتهرت اليونان بهندسةهياكلها وجمال نحوتها والمانيا بعمق موسيقاها

وايطاليا بكثرة رسومها وبدعة تمثيلياتها وتنوعهـا والـروسيا بـرقصات « باليهاتها » الفذة وهذه البلاد او تلك بهذا الفن او ذلك فلا ينبغى للعرب ان ينسوا ان لشعرهم تاثيرا لا باس به فى نشاة الشعـر فى اروبـا وان لخيالهم تاثيرا لا باس به فى تلقيح الخيال الاروبى وانه حرام عليهم ان ينقطعوا عن شعرهم ظنا منهم انه خمد وفتر او ظنا منهم ان ميدانه محدود وانه لا يعينهم على تعاطى الفنون الاخرى او ظنا منهم ايضا انهم يجددون قديمه ويحيون ميته ولا تجديـد الا اذا فهـم المجـدد اسرار الشعـر العـربى العميقة الغنية ٠

عامر غديرة

شـــــوق

شعر : أحمد المختار الوزير

لملمت كفه الجراح ، وبالصدر
نفيث ، وسارب من دمائه

فائرات خرساء ماجت كما ماج
سراب على مدى صحرائه

يتحنى ، اذا يلج به الضر ،
ويطغى التعتي من برحائه

ثم يمضي ، معثراً ، وبعينيه
ذبول العيا ، وبعض رجائه

وظلال من غصة ، من دموع
من وميض الاشواق ، من كبريائه

صامداً للعذاب ، يرتضخ الشوك
ويمشي على لظى رمضائه

لا ينى خطوه ، وان لفه الصمت
وساجي الظلام ، من ليلائه

شوقه ، في بلائه ، أن يرى الفجر
جديد الانوار ، في أجوائه

شوقه أن يعيد ، في موكب النور ،
مع الطير ، هاجساً ، من دعائه

« انّما الحبُّ ، يا أخِي ، ذلك الـيُـنْـبوع »
« فـي فـيـضـه ، وفـي ارْوَائـه »

« كـمْ حِرَارٍ ، مـن الشّـفـاه ، سَقَاهـا »
« وَوُرُودٍ تُـعَـلَّ مـن أنـْدائـه »

« ورَبيـعٍ مُخْـضَوْضِرٍ ، حَـالـمِ الادْوَاح »
« نَشْـوَانَ ، يَحْـتَـسِـي من مَـائـه »

« أنـَا ذَاك المحبُّ يَسْـقـي بكـفّـيْه »
« قُـسَاةَ الجُـفَـاةِ ، مـن أعـْدَائـه »

« كـمْ ، بِصَدْرِى ، من الجِرَاحِ لِـرَامٍ »
« وَبكَـفَّـيّ صُـبَابَـةٌ ، لارْتـوائـه »

أحمد المختار الوزير
63 _ 6 _ II _

مذاهب الشعر في كلام الاعراب

مهدى الى السيد محمد الفاسى
رئيس الجامعة المغربية

بقلم : حسن حسنى عبد الوهاب

كان لزحفة بنى هلال وبنى سليم ورياح وزغبة على افريقية التونسية ـ اواسط القرن الخامس للهجرة ـ تأثير قوى على لغة التخاطب بين السكان ، اذ تزحزحت اللهجات المحلية أمام هذا التيار المتغلب على كل النواحى، فتقهقرت لغة البربر الزناتيين المتوطنين فى السهول والجبال ، والتجأ متكلموها الى سكنى بعض المعاقل المنيعة النائية مثل مطماطة وغمراسن والدويرات والسند وجزيرة جربة المحيطة بالبحر ، هذا من ناحية ، ومن اخرى تسربت لهجة هؤلاء البدو الى كلام أهل الحضر ـ من عرب وافارقة ـ المقيمين فى المدائن الكبرى كالقيروان وتونس وصفاقس وسوسة فغيرته تغييرا محسوسا ، ذلك الكلام الحضرى الموروث من زمن الفتح عن الجاليات العربية الوافدة على البلاد من لدن الدولة الاموية فى الشام ثم عن جنود بنى العباس القادمين من العراق وخراسان .

وكان من مفعول الصدمة الشديدة التى اوقعها اولئك الاعراب بالقطر التونسى أن أدخلت انقلابا حاسما على التقاليد القديمة الراسخة فى البلاد من عهد بعيد ، وحولت الكثير منها الى عوائد عربية عدنانية تمت بأصولها الى عادات وأخلاق منقولة عن أهل الحجاز ونجد وتهامة ، مواطن عرب هلال وسليم الاصلية ، فلم يمض قرن ونصف القرن على الزحفة الهلالية الاولى حتى امتزجت القبائل المتغلبة من الاعراب بالعناصر الاهلية امتزاجا متينا ، اما بحكم الغلبة أو بالمصاهرات ، فنشأت هيئة جديدة من الجيل الصاعد أخذت عن المتغلبين الكثير من أوضاعهم فى لغة التخاطب علاوة على ما اقتبسته من التقاليد والعادات فى الحياة الاجتماعية .

وقد اضطرت الحكومة المحلية الفتية من بنى حفص الى استعمال الشدة تارة والى مجاملة أولئك المهاجمين تارة أخرى رغبة منها فى استمالتهم للانضمام الى قواتها واستخدامهم فى جيوشها ، وتارة ثالثة كانت تبذل الجهد للاغراء

بين القبائل البدوية لقمع أطماع اصحاب الشوكة من بطونهم وأفخاذهم اذ أن كثيرا منهم كانوا يحاولون بسط هيمنتهم وفرض سلطانهم الفوضوى على نواحى الجهات المتحضرة من البلاد وأطرافها ٠

ولا جدال أن هؤلاء الاعراب حين نزوحهم الى المغرب واستقرارهم بجهاته كان لهم من العصبية القبلية ، ومن النجدة الحربية ، ومن النخوة والانفة التى اكسبهم اياها استقلالهم بسكنى الصحارى وانتجاعهم بالقفار ، وتقلبهم فى الفدافد ، وابتعادهم ما أمكنهم عن الاختلاط بالحواضر والامصار المتمدنة ، واتقاء الاحتكاك بالسلطة المنظمة ما جعلهم يمتازون ببلاغة القول فى الكلام ، وبسرعة البديهة ، وبصوغ الشعر المطبوع القريب من أقوال الجاهليين ، كل ذلك نتيجة محافظتهم على لغة عربية سليمة من شوائب التحضر ، بعيدة عن التصنع والتقليد والتشدق ٠

ولله در مؤرخنا الخالد عبد الرحمان بن خلدون حينما يصف بلاغة الاعراب الزاحفين فيقول : (I)

« ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم الى افريقية طرق فى الخبر غريبة ٠٠٠ فيروون كثيرا من الاشعار ، محكمة المبانى ، متقنة الاطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شىء ، وانما أخلوا فيها بالاعراب فقط ، ولا مدخل له فى البلاغة ٠٠٠ الا ان الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ، ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الاعراب، ويحسبون أن الاعراب هو أصل البلاغة ، وليس كذلك ٠٠٠

« ومن هذه الاشعار كثير دخلته الصنعة ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بايامهم ووقائعهم مع زناتة ، وحروبهم فى المغرب ، وضبط لاسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ٠٠ وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه ، وهذا قصارى الامر فيه ٠ »

ومن حسن الحظ أن وصل الينا شىء كثير جدا من الاشعار المنسوبة اليهم فى الملحمة المشهورة (بسيرة بنى هلال) وتعرف ايضا باسم (قصة أبى زيد الهلالى) المطبوعة غير ما مرة ، وهى ـ كما لا يخفى ـ سمر شيوخ اعرابنا حتى الان ، كما انها ما تزال تروى فى المقاهى العتيقة فى مصر وفى

(I) « كتاب العبر » وهو تاريخ ابن خلدون ـ باب دخول العرب الى المغرب

غير مصر ، لكن الناقد البصير يدرك بالبديهة مسحة الاصطناع على تلك الاشعار المضافة كما نبه اليه مؤرخنا الكبير فيما تقدم ·

ومن حسن الحظ أيضا أن يصل الينا نص ثابت الرواية من ذلك القريض البدوى ، وهى قصيدة فريدة أشار اليها ابن خلدون فى تاريخه ، قالها أحد رؤساء قبيلة عوف من بطون بنى سليم ، وهو (عنان بن جابر) شيخ مرداس من بنى جامع بن عوف ·

وبنو عوف هؤلاء كانوا ــ فى العقد الثالث من القرن السابع للهجرة ــ يسيطرون على سائر ضواحى افريقية ــ من قابس الى بونة (عنابة الآن) ــ تغلبوا عليها قسرا ، وكان من سياسة السلطان أبى زكرياء أول بنى حفص أن أثبت كثيرا منهم فى ديوان جنوده المرتزقة ، ورسمهم فى زمام العطاء واختص بالولاية منهم أولاد جامع المرداسى وقومه ، رهط عنان بن جابر لما كانوا يظهرون من الطاعة والولاء لسلطانه ·

وفى وقت ما تنكب أبو زكرياء العاهل الحفصى لقبيلة مرداس وأغرى بين رجالها وبين قبيلة (علاق) ، فنشبت فتنة دموية بين الفريقين كادت تقضى فى النهاية على جميعهم ، وعقب هذه الاحداث سخط عنان بن جابر ــ يعسوب مرداس وشيخها الكبير ــ على سلوك السلطان الحفصى مع قومه بعد مكانته المكينة من الدولة ، فذهب مغاضبا ورحل بناجعته من مرداس ومن اليهم من بنى عوف الى ناحية (زاغر) بصحراء المغرب الاوسط ــ قبلى جبل تيطرى ــ

وبعد حين ظهر للسلطان أبى زكرياء أن يسترضى قوم مرداس ليعودوا الى مواطنهم الاصلية من بلاد افريقية ــ ما بين قابس والقيروان ــ رغبة منه فى الاستعانة بهم وضمهم الى جيوشه المرتزقة ، فكلف السلطان حاجبه المقرب منه الاديب الطائر الصيت : (أبا عبد الله محمد بن أبى الحسين) بمخابرة عنان بن جابر رئيس مرداس لتحريضه على العودة الى الاوطان ، فسارع الحاجب بمخابرة عنان وأرسل اليه بقصيدة أولى لا نعرف منها غير الطالع الذى أورده ابن خلدون :

قدّ المهامهَ بالمهرية القودِ   واطوِ الفلاةَ بتصويب وتصعيدِ

ومن الاسف الشديد انا لا نعلم ما كان جواب عنان بن جابر عن هذا القصيد اذ لم يتعرض لذكره المؤرخون ولا أصحاب المجاميع الادبية ، لكن بعد مدة أخرى خاطب الحاجب ابن أبى الحسين بقصيدة ثانية عنان بن جابر فى

الغرض نفسه ، يؤنبه فيها عن المقاطعة ، ويلح عليه فى الرجوع الى الاوطان التونسية كما يحثه على مراجعة السلطان والحصول على رضاه .

وهذه القصيدة الثانية مع جواب عنان بن جابر عنها شعرا هما اللذان عثرنا عليهما ضمن مخطوط قديم كثير التحريف ، فوددنا ادراجهما باكملهما مع التعرض الى شرح شيء من الفاظهما

هذا ، وقد بحثنا طويلا عن أصل ثان للقصيدتين رغبة فى المقابلة والتصحيح ، فلم نعثر لهما على عين ولا أثر فى مجاميع الادب التونسى ولا فى التواريخ المخطوطة منها والمطبوعة ، اللهم الا ما أورده ابن خلدون من طالعهما فى تاريخه (1)

والواقع أن القصيدين ـ الخطاب والجواب ـ يمتازان باسلوب مخصوص ونهج مخالف لما عرفناه من أوضاع الشعر الحضرى الجارى فى المخاطبات بين ادباء ذلك العصر .

وسيرى القارىء من خطاب ابن ابى الحسين الحاجب الحفصى انه ربما تكلف بعض التكلف فى القول لما اراد أن يسلك الطريقة المعهودة فى أشعار بنى هلال وبنى سليم ، فساق كلامه باستعمال ما كان مألوفا من الالفاظ والتراكيب المطروقة عند اعرابنا بخلاف ما يشاهد فى قصيد الجواب الصادر عن عنان ابن جابر البدوى ، فانه أعرب عن غرضه بسجيته وأرخى العنان لسليقته التى فطر عليها ، والفرق واضح كل الوضوح لمن يتأمل مليا من القولين .

ومهما يكن من أمر فان القصيدتين ـ لا سيما الثانية ـ فريدتان فى بابهما فى الادب التونسى ، وهما مثال رائع لاشعار أعرابنا الصرح من هلال وسليم بعد نزوحهم الى القطر التونسى واستقرارهم به .

وقد اورد الحاجب فى قصيدته أسماء بعض الاماكن التونسية يشير بها الى وقائع حربية معروفة كانت دارت بين ثوار الاعراب والجيش الحفصى حينما كانت قبيلة مرداس تناصر عساكر أبى زكرياء الاول قبل انتقال تلك القبيلة الى اواسط البلاد الجزائرية .

---

(1) تاريخ ابن خلدون ، طبعة الجزائر ج 1 ص 88 و 89 و 455 ـ وكنت نشرت مختصرا من القصيدتين فى كتابى «المنتخب من الادب التونسى» طبع مصر 1944 من ص 103 الى ص 107

ويا حبذا لو تنبه أدباؤنا فى مطالعاتهم الى مثل هذا القريض البدوى الغض فيشهروا فضيلته الشعرية ويلحقوه بادبنا التونسى فيكسبه ثروة ثمينة وطابعا جديدا يميزه عن الشعر الحضرى المعتاد ٠

وها اليك أولا قصيدة الحاجب محمد بن ابى الحسين (1) فى مخاطبة عنان ابن جابر المرداسى :

وهذه قصيدة محمد بن ابى الحسين يخاطب بها عنان بن جابر التى صارت سمير النادى وهجير الحاضر والبادى

سَلُوا دِمْنَةً بيْن الغَضا والسواجِرِ ... هل استنَّ فيها واكفاتُ المواطِرِ (2)
والاَّ فعندي دِيمة مستهلة ... تطلع ما بين الحشا والمحاجر
مساحِبَ أذيالٍ ومركزَ نُبَّلٍ ... ومربَض آساد وملهى جآذر
عهدت بها عَلياءً لا السرّ عندها ... مُذاع ولا جدّ الوصال بغابر
إذا طرق الشوق المبرّح زُرتها ... طُروقَ خيالٍ بين راعٍ وسامر
ولو لا حذارى ان تراع لزرتها ... باسمرَ عسالٍ وأبيض باتر
ومُرْد على جُرْد إذا اشتجرَ القنا ... ترى الجنَّ تعروري ظهور الكواسر
فديتكمُ ما الشوقُ آل ولا الهوى ... ببال ولا قلبي الغداةَ بصابر

---

(1) الرئيس محمد بن ابى الحسين ، أبو عبد الله ، حاجب أبى زكرياء الاكبر ووزير ابنه محمد المستنصر الاول،أصله منأسرة بنىسعيد رؤساء القلعة ـ قلعة بنى الحسين ـ المجاورة لغرناطة بالاندلس ، وارتحل الى تونس فاتصل بابى زكرياء ، لاول استقلاله بمملكة افريقية ، فغلب على هواه ، ولما تملك المستنصر بعد أبيه ولاه حجابته ـ وهى بمثابة رياسة الوزارة ـ واسند اليه مهمات أموره ، ولذلك لقب بالرئيس ، وكانت وفاته بتونس سنة 671 هـ (1273م) ـ قال ابن خلدون عند التعريف به :

«كان أبو عبد الله (محمد بن أبى الحسين) فى رياسته صليب الرأى، قوى الشكيمة ، عالى الهمة ، شديد المراقبة والحزم فى الخدمة » ثم قال : « وكان متفننا فى العلوم ، مجيدا فى اللغة يقرض الشعر فيحسن ، ويرسل فيجيد، وله من التواليف : كتاب (ترتيب المحكم) لابن سيدة ، على نسق الصحاح للجوهرى ، وله اختصاره وأسماه (الخلاصة) ٠ ومن أشهر ما نقل عنه من شعره يخاطب (عنان بن جابر) عن الامير أبى زكرياء لما خالف واتبع ابن غانية (الثائر اللمتونى) وهى على روى الراء ، وكان له قبلها أخرى على روى الدال ٠ »

(2) واكفات : سائلات

دعوها فإن يسمح بها الدهر اغتفر ... له ولها ذنب اللّيالي الغوابر
ودونكم يا للرجال تحيّةً ... يخصُّ بها عنّي (عِنان بن جابر)
فتًى ما دعته زلةٌ فأجابها ... فكيف طوى كشحاً على نفس غادر (1)
وقد كان بيني - يا عنان - وبينكم ... بواطنُ صنّاها بحفظ الظواهر
وفي كل عام كان للجيش وقعةٌ ... نجرُّ بها أذيالنا جرَّ سادر (2)
على كل خوّار القِنان كأنّه ... ربيبُ سعالٍ لاحَ في شكل طائر
يريك على عطفيْه مسحةَ مؤمنٍ ... ويكتم في جنبيْه أضغان كافر
نمدّ لها سمر القنا فتخالها ... كلين القنا ما بين أُذنٍ وحافر
فتختال أعطاف وتُعسِلُ سمرنا ... وتهتزّ كالسمر ابتغاءً المفاخر
نشاوَى على خيل نشاوَى كأننا ... واسيافنا لم نستفق من تساكر
تظلّلنا الرايات وهي خوافقٌ ... على كل رِئبال بخفّاق خادر
وحشو القباب الحمر بيضٌ أوانس ... عفيفات ما تحت اشتمال المآزر
يطالعن من بين الشفوف كأنما ... يطالعن خِلسا من كِمام الازاهر
اذكرك العهد الذي كان بيننا ... وان كنت عنه ساليِاً غير ذاكر
أَلمْ يعلق التوحيد قلبَك ناشئاً ... ألم تتكفّل حفظ تلك الاواصر
وكنتَ تجيرُ الناسَ في خير دولة ... فأصبحتَ جاراً في هلال بن عامر
وكنت كليْثِ الغاب عِزًّا ومنعةً ... فصرتَ كامثال الرّئال النوافر
وكنتَ نزيلَ الملك تجني ثمارَه ... أفانينَ من أفنان ريَّان ناضر
وكنتَ تلقى العزَّ تحت ظلاله ... فها أنتَ تلقى الذلَّ تحت الهواجر
وكنت ترى الابال كوماً غضاضةً ... فأصبحت في اتباع شآء وباقر
تبَدّلتَ بالسهليْن والعطف زاغراً (3) ... وبالصافنات الجرد جربٍ الاباعر
كأنْ لم تجرّر في زرود (4) وصبرة ... ذيولَ التصابي في حِسانٍ غرائر

(1) طوى كشحا : ولى معرضا

(2) السادر : الذى لا يبالى

(3) (السهلين) و (الطف) أسماء أماكن غير بعيدة عن القيروان – و (زاغر) بلاد متسع يقع بصحراء بلاد الجزائر فى جنوب جبل طيرى

(4) (زرود) واد كبير ياتى من ناحية تبسة وينسرح فى بسائط القيروان من قبليها (وصبرة) وتسمى المنصورية ، مدينة أحدثها اسماعيل المنصور الفاطمى فى سنة 337 هـ ، تقع فى جنوب القيروان وتبعد عنها نحو الكيلوميتر – وكثيرا ما يقصد بصبرة مدينة القيروان نفسها لانه فى وقت ما اختلطت المدينتان ببعضهما .

ولم تَتْلُ خطّاراً بأكناف عَمْرة(1) ... ولم تُثنِ بالقصرين أعصافَ ضامر
ولم تُدرك الاوتار بالقرن(2) غالباً ... ولم تقضِ بالالواح أوطار زائر
عزيز علينا - يا عنان - ضلالة ... حدت بك لا تلوي على زجر زاجر
تبصّر ولا تحمل على النفس غيّها ... أعيذك من كرّات دهرٍ جواسر
فديتك لا تَنْشر الضلالة بالهدى ... فديتك لا تَنْشر العمى بالبصائر
وما العربُ العرباء الا بعهدها ... فمن كان أوفى كان أولَ فاخر
فكم حفظت من ذمّة قوس حاجب ... وكم مَثّل أبقى السموألُ سائر
كذلك كان الناس يوفون فابتغوا ... سبيلَ الوفاء كابراً إثر كابر
وفي يوسف الوافي عليهم زيادة ... أبي هجرس الندب الصفي المثابر
رأى الرشد حيث العزّ ألقى جرانه ... فخيّم مثواه عزيز المجاور
رأى الغيّ من يتبعه يضلل سبيله ... فآوى الى ظلٍ من الحق باهر
غلام غذاه مذ كان يافعاً ... فوفيّ وما وفيت يا للعشائر
ولم فتية من آل منصور أسعدوا ... لدى خير منصور وأكرم ناصر
لدى مَلك يعفو ويغفر دائماً ... فأين الفرار من عفو غافر
ومن تنفع الذكرى تَلافَى تلافه ... وكشف عن وجه من الرشد سافر
هدتك الهوادي - يا عنان - وأمطرت ... ذراك الغوادي بين بادٍ وحاضر

جواب عنان بن جابر عن قصيدة الحاجب :

خليليّ عوجا بين سلع وحاجر ... بعوج(3) عناجيج نواجٍ ضوامر
قلاص(4) خماص شازبات عرامس ... مواضٍ نواضٍ مرقلات عوابر

(1) (عمرة) فحص متسع جدا فى اواسط البلاد التونسية ـ و (القصرين) مدينة عتيقة فى الجنوب الغربى من البلاد التونسية

(2) (القرن) جبل عال فى الجنوب الغربى من القيروان ، اسماه موسى بن نصير الوالى الاموى بهذا الاسم ، ويعرف الان (بجبل الباطن) يعنى باطن القرن .

(3) العوج ، ج عوجاء : هى الناقة الضامرة ، والعناجيج : الابل المختارة ، وأحدها عنجوج بالضم ـ والنواجي السريعة السير التى تنجو براكبها .

(4) القلاص ج قلوص : الصغيرة من الابل ـ الخماص : الضوامر ، وفى الحديث : « الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » ـ والشازبات ج شازبة وهى الضامرة أيضا ـ والعرامس ج عرمس : الناقة الشديدة الصلبة ـ والمواضى : المسرعات فى سيرها ـ ومثلها النواضى ـ والمرقلات التى ترقل اذا مشت ، والارقال : ضرب من السير الحثيث ـ والعوابر : النوق التى تعبر براكبها البر كما تعبر السفن فى البحر .

طوال الهوادي(1) لا يخفن تنوفة ... هَمَلَّعة الاطراف هدل المشافر
وعوجا على دار لنا في جنابها ... أفانين لهوٍ دائم غير داثر
بحدّ وشيج(2) واختلاف سلاهب ... ومجمع غادات وغان وسامر
وقولاَ لسعدى والرباب هل انتما ... على العهد أم ساعدتما زجر زاجر
وهل فيكما موفٍ بوعدي وقلّما ... يكون الوفى من صامتات الاساور
خليليّ مالي كلّما رُمتُ سلوةً ... دعاني منادي الشوق دعوة جابر
ولما رأيت الودّ قد بان وانقضى ... دعوتُ ونار الشوق تغزو ضمائري
ألاَ أيها الغادي على متن ضامر ... سليم القرى(3) عبل الذراعين فاطر
يزفّ(4) زفيف الخاضبات وينثني ... كحقب لحتها لافحات الهواجر
عليه غلام لا يملّ من السُّرَى ... عليم خبيرٌ بالصُّوى (5) والمخاطر
تحمّل الى(ترشيش) (6) عنّي تحيّةً ... كما سلّم الاحباب عند التزاور
« بلاد بها نيطت عليّ تمائمي » ... وفيها نَمَا عقلي ولُبّي وخاطري (7)
وبلغ لندب (8) أريحي سميدع ... سلاماً يؤدّى عن عنان بن جابر
الى الماجد الاسنى الى فارس الوغى ... مروّي القنا يوم التقاء العساكر

---

(1) الهوادى : الاعناق ــ والتنوفة المفازة ــ وهملعة الاطراف ، أى سريعة حركة الاطراف ، يريد يديها ورجليها ــ هدل المشافر : أى مسترخيات الشفاه ، وهو ما تمدح به الابل عند العرب

(2) الوشيج : المختلط من الرماح بعضها ببعض ــ السلاهب ج سلهب : الفرس الطويل ــ السامر القوم يسمرون ٠

(3) القرى : الظهر ــ الفاطر : البعير الذى فطرنا به أى طلع

(4) يزف : يسرع ، وفى القرآن : فاقبلوا اليه يزفون ــ الخاضبات : ذكور النعام التى أكلت الربيع فاحمرت سوقها ــ الحقب ج أحقف وهو حمار الوحش ــ لحتها لافحات : أى أن الهواجر قشرت جلدها ، ولحا بمعنى قشر ، والهاجرة وجمعها هواجر : شدة الحر في منتصف النهار

(5) الصوى ج صوة : الاعلام من الحجارة العالية ــ المخاطر ج مخطر : أى موضع الخطر

(6) ترشيش اسم لمدينة تونس قديما

(7) هذا البيت لابن ميادة الشاعر تمثل به هنا عنان بن جابر

(8) الندب : السريع الاجابة لما يندب اليه ــ الاريحى : الذى يرتاح الى المعروف ــ السميدع : السيد الوطىء الاكناف

أبي عابد الله الكريم نجاره ... حليف الايادي والندى والمآثر
بعثت أبا عبد الاله بدائعاً ... محبّرة منظومة كالجواهر
تذكّرني الودّ الذي كان بيننا ... وتزعم اني ساليٌ غير ذاكر (1)
ليال وأيّام نعمنا بوصلها ... على كرم منا وحفظ سرائر
وكنّا إذا ما الجيش صفّت جنوده ... ترانا على خيل عتاق ضوامر
عراب طراب صافنات سلاهب ... خفاف التوالي مدمجات الحوافر (2)
نجرّ القنا المرّان فوق خدودها ... نقدّها للطعن لا عن تشاجر
نخوض وغاها والقنا تقرع القنا ... بكل حسام مشرفيّ وباتر
فلما بدا لي بعض ما كنتُ أتّقى ... وحانت أمور ضيّقات المصادر
وعادت عليّ الارض حلقة خاتم ... بلا ذلّة مني سوى طوع آمر
رأيت رجالاً من رياح ومالك ... وعوف ودبّاب وزغب وماجر
لهم مرقب دوني وقد كنت قبلهم ... بسيفي ورمحي في الوغى وعشائري
تبيّنتُ حالا لا أطيق احتمالها ... فحدتُ بنفسي عن عدوٍ وجائر
وسلّمت أرض الشرق لا عن مذلّة ... ويمّمتُ أرض الغرب لا عن تخائر
الى بلد لا يعرف الذلّ أهله ... كرام الحشايا من هلال بن عامر
فسقياً لها من بلدة جادها الحيا ... ولا زال فيها واكفات المواطر
بلاد بها للغانيات مراتع ... منمنمة أكنافها بالازاهر
وعزّ يصون النفس عن طارق الاذى ... ويحمي الفتى عن جور بادٍ وحاضر
توافي الينا كل يوم قبائلٌ ... موشحة بالماضيات البواتر
فمنها صديق صادق الودّ منصف ... ومنها عدو كاشح غير ناصر
فمن كان منّا نال عزّاً ورفعة ... ومن حاد دسنا أرضه بالحوافر
فلا لومَ ان الجود فيما فعلته ... فللموت أحلى في الحشا والحناجر

---

(1) قوله : تزعم انى سالى : رده الى الاصل فحركه

(2) العراب من الخيل العتيقة غير الحجينة ، و (الطراب) : التى فى سيرها خفة ونشاط ، وفى صحاح الجوهرى : ابل طراب : نازعة الى أوطانها — و (الصافنات) : التى تقف على ثلاث من قوائمها وتثنى الرابعة ، وفى القرآن الكريم : (اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد)

وباقى القصيدة واضح المعنى لا يحتاج الى تفسير ٠

من الذلّ ان الذلّ عنا بمعزل ... وما شأننا غير اكتساب المفاخر
وفي الارض أوطان وماوى ومسرح ... وفي الناس من يُرجّى لدفع الضرائر
وسيفي ورمحي واعتراثي وسابقي ... ودُرعي وقومي كالاسود الهزابر
حميتَ ـ أبَا عبد الاله ـ من الاذى ... ولا زلت تسمو في جميع المآثر

وعقب هذه المراسلة التحق (عنان بن جابر) بالخليفة السعيد من بنى عبد المؤمن بمراكش محرضا له على محاربة آل بنى حفص ملوك افريقية ، لكن المقادير حالت دون وصوله الى مرغوبه اذ انه هلك فى سبيله هذه ، ومات بمدينة (سلا) من بلاد المغرب ، ولم ينل ما كان يصبو اليه (1)

الاصمعيات

رأيت ـ ايها القارى الكريم ـ ان عنان بن جابربني قصيدته المتقدمة على قواعد علم العروض المعروفة ، كما راعى فيها شروط الاعراب ، وهذا قلما ياتى فى الاشعار المنسوبة الى بنى هلال وبنى سليم حين نزوحهم الى افريقية بل الغالب على قريضهم ـ وان روعيت فى كثير منه الاصول العروضية ـ انه كان خاليا من الاعراب الكامل ، حسبما جرت به العادةفى كلام جميع الاقطار الناطقة بالضاد من اول القرن الثانى للهجرة وربما قبله . وقد نقلنا لك فيما سبق رأى ابن خلدون فى الموضوع .

ونود أن نضيف الى ذلك ـ اتماما للفائدة ـ ما اورده ـ رضى الله عنه ـ فى التعريف باساليب الاعراب الضاعنين الى افريقية فى قريضهم البدوى وطرائقهم فى أشعارهم الخالية من الاعراب ، قال : (2)

«فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم المستعربون فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ، وياتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون فى الخروج من فن الى فن فى الكلام ، وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم ، واكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ، ثم بعد ذلك ينسبون ، فأهل امصار المغرب من العرب يسمون

---

(1) راجع تاريخ ابن خلدون : فصل الخبر عن بنى سليم وتصاريف أحوالهم

(2) المقدمة ، فصل فى اشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد ص 577

هذه القصائد (بالاصمعيات) نسبة الى الاصمعى راوية العرب فى اشعارهم ، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر (بالبدوى) » (I)

ثم قال : « وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى اشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب فى أواخر الكلم ، فان غالب كلماتهم (أى قصائدهم) موقوفة الاخر ، ويتميز الفاعل من المفعول ، والمبتدا من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب » اه

والحقيقة التى لا مراء فيها ان العربية وجدت نفسها ـ قبيل ظهور الاسلام ـ بين لهجات مختلفة تعود باصلها الى لغتين كبيرتين ، الاولى : لغة (عدنان) وتعرف أيضا بلغة مضر ، وهى لسان أهل الحجاز ونجد وما والاهما من شمال الجزيرة العربية ـ والثانية : لغة (قحطان) سكان جنوب الجزيرة يعنى اليمن وحضرموت وما والاهما ، واللغتان الشمالية والجنوبية ـ وان كانتا فى أرومتهما من دوحة واحدة وأصل متحد ، فقد تختلفان فى مفهوم كثير من الالفاظ وفى كيفية النطق ببعض الحروف ، وهذا الاختلاف مشهور معروف أبان أسبابه علماء اللغة والنحو من عصر جمع مواد اللغة العربية فى القرون الاولى من الهجرة ، ونسبوه الى تغاير اللهجات التى كان يتكلم بها القبائل ، وهذا صحيح واضح لا يحتاج الى بيان ،

ودأبت كل قبيلة متمسكة بلهجتها ومنطقها الخاص الى ما بعد ظهور الاسلام ، فلما جاء عصر الفتوح ، وقد اشترك فيها أبناء جميع القبائل أدخلوا الى الامصار المفتوحة مختلف لهجاتهم بما فيها من التباين والفوارق، واستوطن الكثير منهم فى العواصم الموجودة فى البلاد ، او التى خططوها بايديهم ، وبعد حين من الزمن امتزجت لهجاتهم بعضها ببعض وكونت فى كل جهة من جهات العالم العربى الجديد لغة حضرية تتميز كل واحدة عن غيرها بالمؤثرات الاقليمية وبالنطق المحلى ، بالاضافة إلى ما تخللها من

(I) أقول : تسمية الاشعار الشعبية عند اعراب الحجاز ونجد (بالبدوى) كانت فى أيام ابن خلدون ، يعنى فى القرن الثامن للهجرة ـ أما الان فان أشعارهم من هذا النوع تنعت (بالنبطى) نسبة الى النبط ، وهم قوم عدهم العرب « عجما استعربوا أو عربا استعجموا » ـ كما ان هذا الضرب من الشعر يسمى فى اليمن وحضرموت (بالحمينى) ولا أدرى وجه نسبته

المفردات المقتبسة من لسان الاهالى الاصليين ، شأن تطور كل لغة عند انتقالها من أمة الى أمة . ومن أقليم الى اقليم آخر ، فكان ذلك السبب الاول فى ايجاد الخلاف المشاهد الآن فى اللهجات بين الاقطار المتكلمة بالعربية .

***

ومن المناسب أن نأتى هنا بأمثلة مما بلغنا من أقوال الاعراب الهلاليين بعد دخولهم المغرب ، فمن قول بعض شعرائهم يفتخر بقومه من (دريد) ويحن الى منازل القيروان ـ وهى صبرة ـ التى حلوا بها لاول مقدمهم :

تحنّ الى أوطان صبرة ناقتي ... لكن مع جملة دريد حُوّارها
دريد سُراة البدو للجود منقع ... كما كل أرض منقع المآء خيارها
وهم عرّبوا الاعراب حتى تعرّفت ... بطُرق المعالي ما يوفي قصارها
وتركوا طريق البارمين ثنيّةً ... وقد كان ما تقوى المطايا حجارها

ومن مروياتنا الخصوصية عن صديقنا المرحوم (محمد احمد علان) رائد الصحراء الكبرى وخيراتها ، قول الجازية ـ وتسمى سعدى ـ أخت حسن بن سرحان أحد أقيال هلال ورئيس عشيرة دريد ـ تخاطب ولدها الصغير وتنصحه :

لا خير في الطفل الصغير إذا نشا ... وكان رقّاد كثير همائده
إذا ما قضّ الشرق والغرب والسوا ... وقطّع بين الشنايا مزاوده
إما يموت ويرتاح من عيشة الردى ... والا يعود كما الصقر مالي مخالبه

وفى هذا القول من بديع التشبيه ما يكفى للدلالة على بلاغة البدو الحالية من الاعراب .

ويلاحظ أن الجزء الرابع من هذا المقطوع على غير روى الاجزاء الثلاثة المتقدمة ، وهذا من مذاهب قريض الاعراب وأساليب شعرهم ، وقد تنبه الى ذلك ابن خلدون حيث يقول :

«ولاعراب هذا الجيل فن آخر كثير التداول فى نظمهم ، يجيؤون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة فى رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت الى اخر القصيدة تشبيها (بالمربع) و(المخمس) الذى احدثه المتأخرون من المولدين . »

ولنعد الى أقوال بنى هلال وبنى سليم ، فانهم ينسبون الى (الجازية) (1)

(1) راجع شيئا من ترجمة (الجازية) فى تأليفنا « شهيرات التونسيات » طبع تونس 1934 ص 56

هذه كلاما منظوما كثيرا فى معنى الحكمة والموعظة ، وفيه من حسن الديباجة وحلاوة التعبير ما لا مزيد عليه ٠

وكان للجازية من الجمال البدوى الباهر ، ورصانة العقل ورجحان التفكير ما يجعلها بطلة «الزحفة الهلالية» وأبرز ذواتهـا عندهم ٠ فمما يحكى أنهـا كانت ذات يوم فى خيمتها وقد نظرت الى وجههـا فى المرآة فاعجبها جمالـه وصباحته ، وخطر ببالها أن زوجها بدرا ـ ويدعى عندهـم بدران ـ شيـخ كبير علا رأسه الشيب ، ففاهت بعبارة تحسر على شبابهـا ولم تنتبـه أن زوجها بدران كان من ورائها ينصت الى حديث نفسها ، فقال على البديهـة يخاطبها :

تُعاثرني جزاةِ الناسْ أُختأبو علي   تقول شبت يَا بَدرانَ شيبك لاَح
فقلتْ : ما في الشيبشيءْ يُعيبني   ولكن أيام الشَّبابْ صبَاحْ
حنًا إذَا شبْنا وشَابتْ لحَانَا   نَاخذوا من سود العيونْ مَلاحْ
وأَنْتُنَ إذا شِبْتِنْ وشَابتْ شعُورْكُن
تَغْدُنَ كَرادِيسْ حَلْفَا في سنِين شحَاح

فانظر ـ يا رعاك الله ـ الى قوله : (كراديس حلفا فى سنين شحاح) وما فيه من التشبيـه الغريب ، ممـا يذكرك باشعار الجـاهليين ، ثم انتبـه الى المحافظة على (نون النسوة) فى كلامهم ، وما زالت هـذه النون مستعملة الى يوم الناس هذا فى تخاطب أعرابنا المتوطنين الان فى الناحيـة الجنوبية من البلاد التونسية ، فهى جارية على السنـة قبيلة (المحاميـد) و (المرازيـق) و (اولاد يعقوب) وغيرهم ، فيقولون مثلا : (النسـاوين يشربن) و (ياكلن) و (يغزلن) وقس على ذلك ، لكن هذه النون ضاعت من لهجة أعراب شمال القطر التونسى ووسطه ، ولم يحتفظ بها سوى عرب الجنوب منهم ٠

وفيما عدا تونس ترى (نون النسوة) منتشرة فى كلام الاعراب المقيمين فى ناحيـة طرابلس وبرقـة من الهـلاليين والسليميين ، وهى مبثـوثة فى اقوالهم الشعرية ، ونجدها سائـدة أيضا فى كـلام الاعراب من بنى سليـم المستقرين الآن بمصر فى جهة الفيوم والبهنسة من الصعيد ، وقد سمعتها بنفسى من أفواههم فى تخاطبهم ، وما زالت كذلك رائجـة فى لهجات عرب الحجاز ونجد وتهامة وبين عشائر العراق والشام وفى اليمن وحضرموت وما والاها من الاصقاع العربية الاخرى ٠

وكم كنا نود لو كان لدينا من أشعار أعراب الحجاز ـ أجداد الهلاليين وبنى

سليم - ومن بقاياهم قبيلة (حرب) المخيمة الان بين (جدة) و (مدينة الرسول) ، اذن لتمهدت لنا السبل للمقارنة بين أقوالهم الحالية وأشعار أسلافهم المنتقلين الى افريقية فى أواسط القرن الخامس ·

وسمعت أنا فى احدى زياراتى الى الحجاز بدويا من قبيلة (حرب) يحدو جماله ببيتين من الشعر ، أثبتهما هنا ، ولا أدرى أكان الجمال هو القائل لهما أم هما من محفوظه ، وهو الغالب على الظن :

وظبيان من وادي تهامة أقبلا   وقالا لنا حنّا نبي منكما حنّا
فقلت أبسطا كفيكما وتخضّبا   وحنّا على المُضنى بوصلكما حنّا(1)

وفى هذين البيتين من الجناس الكامل ما هو ظاهر ·

ومن المفيد هنا أن نورد مقطوعة من الشعر العامى التونسى قيلت بلا شك فى العصر الحفصى كما تدل عليه الفاظها وسبكها ، والشىء يذكر مع ما يجانسه ، وهى (2) :

غَرّبتك الجِمالْ يا حفصهْ   مِن بلاد بعيد
من سجلماسة ومن قفصهْ   وبلاد الجريد

ومن المؤسف جدا ان لم يصل الينا من الاشعار الحضرية التونسية الا هذه القطعة ، أما اشعار البادية من كلام الاعراب الهلاليين فقد تعهد ابن خلدون بايراد قسط كبير منها حسبما ياتي بعد ·

وليس لدينا من الاقوال الشعبية للحضر فى العهد الحفصى الا ما ينقل من كلام الشيخ الصالح (أحمد بن عروس) المتوفى 868 هـ ، وزاويته مشهورة بالحاضرة التونسية ، مثل قوله :

صوّبت للواد نشربْ   وطلعت من ثَمْ ضَامي
كلّمت من ليس يفهم   أوّاه ! خسارتْ كلامي

---

(1) قوله فى البيت الاول : حنا بمعنى نحن - وحنا الثانية : اسم الحناء النبت المعروف - وحنا فى البيت الثانى من الحنان - وقوله : نبى أى : نبغى

(2) انظر رسالة «المنطق الحضرى» تأليف الشيخ المرحوم محمد النيفر - ط تونس 1312 ص 5 - وقوله : سجلماسة يعنى بها البلاد الكائنة فى الجنوب الشرقى من المغرب الاقصى ، وتسمى الان : تفيلالت

وله أشعار كثيرة من هذا النمط ساق البعض منه مؤلف مناقبه الشيخ عمر الراشدى ، وقد أكد أن ما قاله الشيخ من الملحون « لا ينافر الميزان العروضى ولا يخرج عنه لموافقته وزن الرجز من الاوزان » (1)

الاعراب أهل (القالة)

وهناك مظهر آخر يستحق الانتباه اليه وهو ان بنى هلال وبنى سليم المستوطنين فى البلاد التونسية ، سواء أهل الجنوب منهم أو الشمال ، ينطقون دائما أبدا (القاف) بصيغة (القاف المعقودة ڤ) كما هو جار عند جميع الاعراب فى أطراف العالم العربى ، من الخليج الفارسى الى المحيط الاطلنطى — ولهذا السبب نفسه يطلق أهل الحواضر التونسية اسم (أهل القالة) على اعرابنا ولا يخفى أن أصحاب القراءات القدامى أكدوا أن أهل البيت النبوى كانوا لا ينطقون الا بالقاف المعقودة حتى فى تلاوتهم للقرآن الكريم .

ومن المفيد جدا أن نرجع فى هذا الخصوص الى ما رواه علامتنا ابن خلدون عن نطق العرب بحرف القاف ، قال :

« ... ومما وقع فى لغة هذا الجيل العربى لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار شأنهم فى النطق بالقاف ، فانهم (أى الاعراب) لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار كما هو مذكور فى كتب العربية ، بل يجيؤون بها متوسطة بين الكاف والقاف ، وهو موجود للجيل أجمع ، حيث كانوا من غرب أو من شرق حتى صار ذلك علامة عليهم بين الامم والاجيال ومختصا بهم لا يشاركهم فيها غيرهم ، حتى أن من يريد التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم فى النطق بها ؛ وعندهم انما يتميز العربى الصريح من الدخيل فى العروبية والحضرى بالنطق بهذه القاف ، ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها ، فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤوسهم شرقا وغربا من ولد منصور بن عكرمة .. بن سليم بن منصور (أى بنى سليم) ومن بنى عامر بن صعصعة .. بن هوازن بن منصور (بنى هلال) .. وهم لهذا العهد أكثر الامم فى المعمور وأغلبهم ، وهم من أعقاب مضر ، وسائر الجيل منهم فى النطق بهذه القاف أسوة ، وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هى متوارثة فيهم متعاقبة

---

(1) انظر كتاب « ابتسام الغروس ، فى مناقب سيدى أحمد بن عروس » طبع تونس 1303 ص 243 و ص 506

(2) المقدمة : (فصل فى أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة) الطبعة الاميرية بمصر 1320 ص 552

ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الاولين ، ولعلها لغة النبى صلى الله عليه وسلم بعينها ، وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت ، وزعموا أن من قرأ فى أم القرآن: (اهدنا السراط المستقيم) بغير القاف التى لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته ولم أدر من أين جاء هذا فان لغة أهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم ، وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح ، وأهل هذا الجيل (أى من الاعراب) لم يستحدثوها أيضا الا أنهم أبعد من مخاطبة الاعاجم من أهل الامصار ، فهذا يرجع فيما يوجد من اللغة لديهم انه من لغة سلفهم ، هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا فى النطق بها ، وأنها الخاصية التى يتميز بها العربى من الهجين الحضرى ، فتفهم ذلك والله الهادى المبين » اه

أقول ان شأن هذه القاف غريب فى تقلبات نطقها على مر الدهر ، فقد تقلب الى (أ) فى كثير من المدائن العربية المتحضرة ، مثل مدائن المغرب الاقصى وتلمسان ، وكذا كان أمرها فى كلام أهل غرناطة بالاندلس ، وفى جزيرة مالطة الى الآن ٠ وفى قسم كبير من الاقليم المصرى وغيره ٠

وفى اعتقادنا أن هذا النطق يرجع الى عوامل حضرية بحتة ، لان أهل المدن فى سائر المعمورة يميلون غالبا الى ترقيق الحروف فى مخارجها تسهيلا للتلفظ بها ٠

ويتلخص مما تقدم أن حرف القاف فى هذا العهد لها ثلاثة وجوه فى النطق بها : (قاف حضرية) كما ينطق بها أهل مدينة تونس و (قاف معقودة) كما هى عند الاعراب شرقا وغربا ، و (همزة أ) فى كثير من الامصار ٠

وفى غير (القاف) اعتبر التغاير الملحوظ فى النطق بحرف (الجيم) كيف يتحور ويتباين من ناحية الى أخرى ، فبعضهم يلفظ بها كالقاف المعقودة (ڨ) والبعض يجعلها جيما لينة ـ كما فى تونس ـ والبعض الآخر ينطق بها (جيما معطشة) الى حد أن يصير مخرجها ما بين (التاء والشين) مثل الجيم التركية ، كما هو الشأن عند عرب الصعيد والعراق ، الى غير ذلك من الاوضاع التى يكسبها النطق فى سائر البلاد العربية ٠

هذا ، ولا تظنن ان اختلاف النطق ببعض الحروف مما انفردت به العربية بل هو مشاهد فى كل اللغات الكبيرة فى العالم ، خذ مثلا الامم الجرمانية فانها غير متفقة ولا متحدة فى التلفظ بحرف «الكاف» فقد يكون أحيانا (ك) وتارة (خ) وأخرى (ش) فى الكلمة الواحدة فى مثل اسم المدينة الالمانية المشهورة ، فقد يلفظ بها (مونيك) و (مونيخ) و (مونيش) وقس عليه ٠

وهذا التغيير وأضرابه لا يدخل تحت حصر الا لمن يعالج البحوث اللغوية والصوتية منها حروف الصفير خاصة ٠

ومن باب ابدال نطق حرف باخر فى اللهجة التونسية : قلب حرف الجيم الى الزاى ، فيقولون مثلا فى لفظ : عجوز (عزوز) ــ وفى الجزار (الززار) ــ وفى المجاز (مزاز) ــ وفى فعل جاز (زاز) وفى مضارع يجزى (يزى) بتشديد الزاى ، وقس على ذلك ، ولا يقع هذا الابدال الا فى الكلمات التى فى متنها(ج) و (ز) و (السين) من حروف الصفير وهى قاعـدة مطردة تكاد لا تختلف فى جزء عظيم من أقاليم المغرب كالبلاد التونسية وطرابلس وبرقة ٠

وفى اعتقادنا ان عرب هلال وسليم انما قلدوا الامم البربرية فى اتخاذ هذا النطق ، وقد يفيدنا ابن خلدون عند تفسيره لاسم (زناتة) : « ان أصلها مشتق من (جانا) وهو أبو القبيلة ، فجمع أهل القبيلة فى اسم (جاناتة) ولم يكن نطق البربر بهذه الجيم من مخرج الجيم عند العرب ٠٠ فهم (اى البربر) يبدلونها (زايا) محضة ٠ »

وأمثلة هذا القلب كثيرا ما يجرى فى لغة التخاطب الشائعـة لدى البدو والحضر على السواء ،

ولسنا نقصد فى هذه العجالة بدراسة مخـارج الحروف وما يعتريهـا من القلب والابدال فقد وضع فى هذا الغرض عشرات المؤلفات ، وانما تعرضنا لبعض العوامل النطقيـة التى تدخل بكثرة فى المفردات الـواردة فى الاشعار الشعبية فتظهر مظهر الغلط والوهم لمن لم يستوعب تطور اللهجات العمومية وما يعرض لحروفها من القلب والتغيير ٠

٭٭

واذا ما وصل بنا البحث لهذا الحد فلنضع بين كفتى الميـزان ما قـام به اعراب بنى هلال وبنى سليم من الفساد ، وتخريب المعالم ، وتعطيل الحضارة النضرة التى كانت تتمتع بها افريقية قبل مجيئهم ، وقضائهـم على الامـن العام الذى كان سائدا فى البلاد، وتقويض السلطة الحاكمة المحلية التى سعت وسعها للنهوض بالقطر ، والرفع من شأن سكانه فى شتى الميادين المـادية والادبية ٠

وما كان لهؤلاء الاعراب من مزية تذكر ، فانا نرى أنهم أسدوا الى اللغـة العربية فى عموم المغرب ــ وفى افريقية خاصـة ــ أجل الخدمات ، اذ انهـم بامتزاجهم باقوام البربر الاصليين أجبروا العناصر الاهلية بحكم الغلبة على استعمال اللغة العربية فى تخاطبهم بدلا من لهجاتهم البربرية التى لم تزل وقتئذ رائجة فى جميع البلاد ، فأخذت من ذلك الحين فى التقهقر رويدا رويدا أمام لغة المهاجمين ، والتجأت بقاياها إلى الجبال والمعاقل المنيعة ، لكن العربية

البدوية لحقتهم هنالك وزعزعت منعتهم ، وتسربت الى ابنائهم وأحفادهم فاضطرتهم الى استعمال العربية خاصة ، وتقليد أوضاعها وآدابها وأشعارها

وقد أثبت ابن خلدون سريان اللغة العربية قسرا الى القبائل البربرية وتغلغلها بينهم عندما تكلم على (هوارة) وهى من أضخم مجموعاتهم ، فقال : (١)

« وصارت قبيلة هوارة ظواعن فى عداد الناجعة عرب بنى سليم فى اللغة والزى ، وسكنى الخيام ، وركوب الخيل ، وكسب الابل ، وممارسة الحروب ، وايلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلولهم ، وقد نسوا رطانة البربر ، واستبدلوا منها بفصاحة العرب ، فلا يكاد يفرق بينهم » .

فهذه المزية العظيمة هى الوحيدة التى يمكن ان توضع فى ميزان الاعراب اذ أنهم فرضوا لغتهم العربية على سكان البوادى والارياف فرضا دائما مستمرا ، وبفضل ذلك أيدوا بصفة نهائية ما كان قام بنشره عرب الفتح العربى فى الحواضر والعواصم الافريقية ، أربعة قرون قبل هذا العهد .

واعتبر أيضا تمسك بقايا بنى هلال وسليم بتقاليدهم العربية لا فى اللغة فحسب بل فى كل مظاهر الحياة الاجتماعية كعاداتهم فى الافراح والاتراح وحتى فى العاب صبيانهم المنقولة عن سكان جزيرة العرب .

والواقع أن هذا الموضوع الهام يحتاج الى دراسة عميقة واستقصاء شامل يجتهد فيه الى ابراز خصائص تلك التقاليد الموروثة ، وعن أصولها ، واظهار خفاياها للعيان .

ولله در ابن خلدون فى الفاته النظر الى أهمية هذا النوع من الابحاث ، حيث يقول : « وكثير من أمثال هذه الاخبار التى لو انصرفت اليها عناية الناقلين لملأت الدواوين »

وأرجو أن يتاح لسواى من الباحثين بما لم يتح لى من البيان فى الموضوع وانى لارجو أخيرا أن يحقق هذا الغرض شبابنا المثقف ، وليس ذلك على همته الوطنية وغيرته على تراثه القومى بعزيز !

حسن حسنى عبد الوهاب

---

(١) تاريخ ابن خلدون : فصل فى أخبار البرانس من البربر فى أخبار هوارة .

أبعاد

« الى استاذي : الشاذلي عطاء الله »

شعر : جعفر ماجد

لَوْ حَوَانِي الكَوْنُ يَوْمًا هَل أَعِيشْ
وَأُرَانِي فِيهِ مَشْدُودَ الجَنَاحْ
لَيْسَ لِي يَا رَبِّ مِثْلَ الطَّيْرِ رِيشْ
غَيْرَ أَنِّي طَائِرٌ فَوْقَ الرِّيَاحْ

∴

إِنْ أُفِقْ ذَاتَ صَبَاحٍ عَبِقِ
وَأَطِرْ مَا بَيْنَ أَسْرَابِ الطُّيُورِ
وَأُغَمِّسْ رِيشَتِي فِي الشَّفَقِ
مِثْلَ مَلاَّحٍ عَلَى أَمْوَاجِ نُورِ
وَأَرَ الأَلْوَانَ فَوْقَ الأُفُقِ
قَبْلَ أَنْ تَنْحَلَّ فِي مَاءِ البُحُورِ
وَاحْتِرَاقَ الشَّمْسِ خَلْفَ الغَسَقِ
وَانْبِثَاقَ النَّجْمِ إِبَّانَ الظُّهُورِ
إِنْ أَكُنْ رَبَّ الدُّجَى وَالفَلَقِ
وَأَقُلْ لِلأَرْضِ : كُفِّي ! لاَ تَدُورِي!
يَضِقِ الكَوْنُ سَرِيعًا . . يَضِقِ
وَأَصِحْ : مَاتَ خَيَالِي وَشُعُورِي

∴

هَلْ وَرَاءَ الكَوْنِ لَيْلٌ وَصَبَاحْ ؟

∴

لَوْ حَوَانِي الكَوْنُ يَوْمًا هَلْ أَعِيشْ
وَأُرَانِي فِيهِ مَشْدُودَ الجَنَاحْ

جعفر ماجد

واحـــــة الغـــــد

بقلم : البشير المجدوب

مطر ٠ مطر يهطل فى ارضنا والشهر نيسان

قلوب لاهثة عطشى ٠ هل ينزل المطر ؟ هل تجود السماء ؟ اما آن للغيث ان يطرق !

عيون فى كل غداة ومساء ، تحدق الى الزرع تجس نبضه تستفسره عـن حاله

هذا يغمس كفه فى التراب يسبر مدى الرطوبة ويقيس سمك الثـرى وغور الحياة٠٠أو يقتطع حفنة، فلذة ناشفة ظمآى ويفركها بين يديه متحسسا منطق التربة ، نداء شوقها وخفى شكواها ٠٠

وهذا يتامل دقائق لون الزرع مستعرضا حالته موازنا بين الامس واليوم ثم يرفع راسه الى السماء فى نجوى صامته :

« تامل يا الله الارض شقوق وقشور ٠ الارض لـم تعـد ذاك البساط الغض الوثير ٠ الارض ، حيثما تلفتنا ، افواه فاغرة ملايين الاشداق تنشد الرى والطعام ٠ لكانها افواه المساكين فى بلادنـا تحتج فى صمت وتضرع فى مــرارة

الارض بثور وقروح تنتظر الايدى الحبيبة ان تمسح عليهـا فـاذا هى ـ لمحة الطرف ـ تلتئم ، وتتماسك وتنضم ، وتضحى عافية وبركة

هذا اليبس سبع ضار ٠٠ مخالب تنشب فى الجذور والسيقان ، تنوشها تنهشها حية فعل الكواسر بافراخ الطيور

والحيوان ؟ الحيوان فى اوج الربيع ؟

كنا نستيقظ فى غلس الفجر على اصوات الفحول ترغى وترفع عقيرتها، مرددة خوارها كانه الصلاة القوية الحارة الى الشمس والنور ، فنطمئن الى سير الوجود ونجد طعم الغبطة والامل٠

واليوم ! لقد حيل بين الفحل والنـــزوان ٠ ٠ ولا الاناث تطيـــق وطء الفحول ٠ كاد ينضب « الجنس » وقد عهدناه دافئا فوارا ٠٠

ها قد غيم الجو من جديد . اتراه ينزل هذا المساء ؟ سئمنا الاعيب السحب نتصيدها فتشرد هازئة كانها الوحش النافر .

شد ما تكررت الوعود. السماء انثى صلفة عنود ، تفتن فى منعها وتلوين اغرائها ففى كل يوم لبوس من الفتنة . برق خلب وتهاويل سراب .

نديت نديت الريح حتى كاننا نحس بللها فى الحلوق والخياشيم ، الغيث يوشك ان ينضح ايدينا المتطلعة اليه .. تتلمسه ، تتسمع الى بـرده ، وتتشهى نداه .

انه ينقر الاكف والجبـاه نقرا ، وخزا خفيفـا كدبيب الحميـا . كميـلاد الطرب او دغدغة السرور .

تبارك الله ! لقد صح الوعد !

سحا .. سحا وتسكابا ايها المطر حتى تنز الارض شرابا طهورا .. حتى تنز مسام الارض نزيزا .. حتى تجود الآبار دفقا ، وتطفر الينابيع فـورانا

نعم ! وتكتظ السنابل ، ولتفغم حلوقها وتشرق عبا من غيثك وفيضك !

نعم ، ويمتلىء الزيتون طفحا ، ويستحيل نسغه ذهبا سائلا وهاجا ..

مدرارا حتى المساء ، حتى الفجر ، اياما متواليات .. حتى غاية الرى وموت الظما

مثل هذا العرس لم يشهده شعبنا ، لـم يتفق لـه ، للاسف ، مـن زمن بعيد

هذه القطرات المتراصة سيـلا جما مطردا ! .. انهـا ، بعـد ، بحيرات فضية خصيبة اصبحت طوع السدود ، رهن اشارتها وميقاتها الموعود

انها ، بعد ، دماء صخابة فى الشرايين ، ايمان بالحيـاة مجـدد وثاب عزم قوة لا تستكين

انها معامل تدوى آلاتها ـ ولا كطنين النحل ـ يوفر لها الوقود جزلا فلا تشبع ، معامل تؤتى جناها فى المواعيد ، لا خلف ولا مطال ، وفـاء بالعهـد انجازا وابراما .

انها وجوه قوم تالقت فيها اشعة الحياة فهى تفور عزا وشمما ، همة وفتوة

انها .. انها المستقبل ترسى قواعده ويتمثـل صرحه شامخـة ذراه .. مستقبل شعبنا قد ذللت غاياته وامكن مستحيله .

تزكية العاطفة القومية

محجوب بن ميلاد

منذ خمس سنوات خلت ـ فى اواخر ديسمبر 1957 بالضبط ـ حظيت بشرف نادر اذ شاركت فى «الندوة الدولية للاسلاميات» التى انعقدت بعاصمة لاهور الجميلة . وها هى ذى الظروف السعيدة تابى الا ان اشارك اليوم فى هذا المؤتمر الفلسفى الذى يعقده ببشاور « المجلس الفلسفى الباكستانى » . (1)

بالامس غير البعيد كانت المواضيع التى طرحت على النواب المشاركين فى ندوة لاهور تشمل عشرا من القضايا الهامة.هى بالضبط القضايا التالية:

1 ـ امكان مساهمة الاسلام فى اقرار السلام العالمى .

2 ـ العناصر الاساسية فى الثقافة الاسلامية .

3 ـ البناء الاقتصادى للمجتمع فى الاسلام .

4 ـ دور الاجتهاد فى الاسلام .

5 ـ الاسلام والعلاقات بين الاديان .

6 ـ مفهوم الدولة فى الاسلام .

7 ـ موقف الاسلام من العلم .

8 ـ تاثير الغرب الاقتصادى فى الافكار الاسلامية .

9 ـ اثر الاسلام فى تاريخ الغرب والثقافة الغربية .

10 ـ موقف المجتمع الاسلامى من الافكار ، والقيم الاجتماعية الحديثة .

---

(1) نص المحاضرة التي ألقاها الاستاذ محجوب بن ميلاد في احدى جلسات المؤتمر الفلسفي الباكستاني العاشر الذي انعقد بمدينة « بشاور » من 12 الى 16 أبريل 1963

اما اليوم فان المجلس الفلسفى القومى الباكستانى يعرض علينا فى مؤتمره السنوى العاشر قضيتين فحسب هما هاتان القضيتان

1 ـ معرفتنا شؤون العالم الخارجى ٠

2 ـ تطور العاطفة القومية ٠

ولست اذكر لكم ما عرض بالامس القريب٠من المواضيع على الاعضاء المشاركين فى ندوة لاهور وما يعرض ـ اليوم ـ على اعضاء مؤتمر بشاور للتنظير بين المؤتمرين من حيث ان المؤتمر الاول عالج من القضايا اثناء جلساته اكثر مما نعالج فى جلسات هذا المؤتمر ٠ لا ولا اريد ان اميز بين ما حدا باولئك الذين سهروا على تنظيم ندوة لاهور من الجشع وما حدا بالساهرين على تنظيم هذا المؤتمر من القناعة ٠

لا٠ لم اذكر لكم ما ذكرت رغبة فى ان اميز بين اولئك وهؤلاء،فابارك اصحاب الجشع لجشعهم واذم اصحاب القناعة لقناعتهم او العكس ٠٠٠

وانما الذى حملنى على ان اذكر لكم ما ذكرت فمالى من صادق الرغبة فى أن اوحد بين اولئك وهؤلاء فى ذات التوفيق الذى حظوا به جميعا حينما تخيروا ما تخيروا من المواضيع! فسواء أكانوا أصحاب جشع او أصحاب قناعة فانهم لم يتخيروا من المواضيع الا المواضيع الحية، الهامة،الرئيسة التى تشغل بال ذوى العقول بالدول الجديدة ـ وخاصة الدول الاسلامية التى تجهد نفسها ـ موفقة حينا ، غير موفقة احيانا ـ فى سبل تعزيز ذاتها المجددة بتعزيز اركانها الجوهرية ٠

فالموضوعان اللذان نحن مطالبون ـ اليوم ـ بالعطف عليهما ، عطف النظر والتحليل والكشف عن مختلف جهاتهما ـ ومواضيع ندوة لاهور مشتقة من عين المنجم : اعنى منجم الحرص على « مجابهة » قضايا لا بد لنا من العطف عليها بكل ما اوتينا من نور الحدس وصدق الهمة ، وسمو النظرة حتى نفتح «سبل الامكان» أمام الاخلاص الحى لذاتنا الحية المجددة فنستأنف السير بعزم ـ هو عزم الحياة المجددة ـ اقوياء ، سالمين٠وحتى يضحى فى امكان كل واحد منا ان ينشد مع شاعر لبنان الدكتور سليم حيدر انشاده اذ قال :

« احب فى كنه ذاتى رفيف ماض وآت » !

وفى الحق ، فلست أعجب أن يحظى ذرية اقبال بهذا التوفيق فى تخير المواضيع التى يعرضونها على ذوى العقول والارادات الصادقة ٠ وليس من باب الصدفة المحض ما نشاهده من امارات ذلك التوفيق فيما يعقدونه من الندوات والمؤتمرات ٠ فروح اقبال يتجلى فيها ٠ وعين اللهب الذى اضطرمت به نفسه الكبيرة يضطرم فيها !

ولا غرو ٠ فاقبال قضى حياته العامرة فى تنغيم اشواق الضمير الاسلامى وتنغيم ما يهمهم فى اعماقه الجامحة من ارادة البعث فكان حريصا ـ كنه الحرص ـ على أن يوفر له ـ فى هذا العالم الذى لا ينفك يتجدد ويتطور ويستحيل ـ كل الاسباب التى من شانها ان تجعله قادرا على ان « يجابه » ـ من جديد ـ قضايا الوجود الانسانى بنور هو النور ، وبقوة هى القوة ، وبزكاة هى الزكاة: لا ما ورثناه من عهود افلاس حقيقة الذات من شتى الانظار والعادات والتقاليد المتحجرة بضيق افقه ، او يحد من اقتداره ، او يهشم اندفاعه ، لا ولا ما يجد فى عهدنا المضطرب من مختلف الانقلابات فى اى ميدان شئت من ميادين النشاط الانسانى ينسيه مطلق اخلاصه الاصيل لاصيل اشواقه فى حلبة الحق ، والعدالة ، والخير ٠

وقلها باختصار : فاشواق اقبال تتلخص فى هذا الشوق : ان يرد الفكر الاسلامى أو الضمير الاسلامى الى نفسه ، والى مقتضياته ، والى متجدد طاقاته حتى يقوى ـ من جديد ـ على علاج كل ما ينجم فى هذه الحياة من المشاكل فى مستوى الافراد ، وفى مستوى الجماعات فى ميادين الاحساس ، والنظر ، والعمل !٠٠٠

وانت لا تنظر فيما عرض بالامس القريب على اعضاء مؤتمر لاهور وما يعرض اليوم على اعضاء مؤتمر بشاور من مختلف الاغراض والمواضيع الا وتجد خلال حروفها والفاظها عين الشوق المضطرم ٠ وهو شوق عيل صبره ان يبقى مجرد انسراب «يتربع» فى الاذهان لانه شوق يريد أن «يجسم» فى الواقع الصلب حقيقة حية من حقائق «الخلق» عن طريق «المخاض» الهائل الاليم النبيل !٠٠٠

ولئن كان لك رغبة حينما تشيم هذا التوفيق الذى هو توفيق ذرية اقبال فيما لا ينفكون يثيرونه من القضايا العقلية التى من شانها ان تعين ذلك « المخاض » الهائل العظيم على ان يتحقق فيعرضونها على العقول » ويطلبون الجدل حولها والنقاش ، ويجعلون منها الشغل الشاغل عند الخواص قبل العوام ـ فانما هى الرغبة فى ان يسرى مثل هذا الروح الصادق ، الجدى ، النير ،

بجميع الاقطار الاسلامية · فهو «روح المجابهة» ــ على نحو ما يجب أن يكون المجابهة ــ لقضايا الذات : صدق فى العزيمة ، وتجرؤ على اشوك المسائل · ووضوح فى النظرة !

فالعالم الاسلامى برمته مهما تنوعت اجزاؤه، وتغايرت ملامحه ، وتباعدت أقاليمه ، وتباينت أجواؤه المادية والعقلية ــ واحد أمام تلك القضايا ·

ومهما كان التفاوت بين أجزاء العالم الاسلامى فى الصحة او الاعتلال ، وفى الشعور او الذهول ، وفى التقدم او التاخر ، وفى التصميم النير على مجابهة الحال او التخاذل امام ارهاق المجابهة ــ رهن ذلك المخاض العقلي الهائل ····

وليس من شك عندى فى ان ما يعترض ــ اليوم ــ الشعوب الاسلامية كافة من متنوع المشاكل فى الميادين الاقتصادية ، والصناعية ، والفنية حينما تحرص ــ حرص البر ــ على تاسيس اسس اقتصادها ، وصناعتها وتقدمها الفنى لتتلافى ما فاتها أيام انحطاطها ــ وما أكثر ما فاتها أيام انحطاطها ! ــ ليس من شك عندى فى ان ذلك كله ــ على خطورته ــ لا شىء يذكر بجنب ما يجب عليها ان تابجهه من المشاكل العقلية بوجه الاجمال ! فبناء العقول الاسلامية ــ جديد البناء عصريه ــ هو الشرط الاساسى الاول المهيمن على الشروط الاساسية الاخرى كلها · وهو هو الكفيل بان « يفجر لنا ــ من جديد ــ شآبيب الاخلاص الحى للذات الحية فى صولة اقتدارها وفى نظام صمودها بدروب ما شئت ــ وشاء الاخلاص ! ــ من مشاريع الحياة فى عالمنا الذرى الجديد ! ···

ولست اذكر لك جديدا ان انا ذكرت لك ان « تهافت العقول » ــ وهى عبارة مرادفة عندى « لتهافت الضمائر » ــ هو اصل كل تهافت ··· وما تشيمه من الوان الخراب فى شتى الاوضاع المادية بالاقطار التى تسمى اليوم بالاقطار المتخلفة ليس الا ناشئا عما يشاهد من امارات الخراب الشامل فى حلبة عقولها !···

فتجديد العقول بتجديد بنائها هو الذى يضمن لك ــ اذا ــ تجديد كل بناء فى الافق الانسانى : سواء أكنت فى الميادين العلمية*أو الفنية أو الصناعية او الاجتماعية او السياسية او الخلقية او الدينية او الروحية على الاطلاق !

فبفضل الخلاص بعض العقول لبعض ما تكنه فى قراراتها من خفى الطاقات امكن لى ان اقطع ـ على ظهر الطائرة ـ وفى بضع ساعات المسافات السحيقة التى تفصل بين تونس وبشاور ... ولم يكن اجدادنا ليفوزوا بقطع مثل هذه المسافات ـ على ظهور جمالهم ـ الا فى عديد الشهور المتوالية وفى نطاق ما يمكن لك ان تتصوره من العنت والارهاق !...

ولا تظنن ان تجديد بناء العقول ينحصر فى امر التربية والتعليم فى محدود آفاقهما « الصناعية » او فى محدود الافاق التى تعودنا ان نفهم فيها التربية والتعليم ...

فشؤون البشر معقدة ، وشؤون البشر دقيقة الاسرار ، وشؤون البشر لطيفة الجوهر ، وشؤون البشر متداخلة تداخل اخفى خيوط الحرير وادقها .

وآية آيات هذا التداخل العجيب تضامن لا اشمل منه ، ولا اشد صرامة . ولا اوكد اقتضاء !

وبالرغم من انك ـ ساعة التحليل ـ تفصل بين الشؤون المادية ، والشؤون الاقتصادية والشؤون الصناعية والشؤون الفنية ، والشؤون العسكرية ، والشؤون العائلية ، والشؤون السياسية ، والشؤون العقلية ، والشؤون الدينية ، والشؤون الروحية او ما شئت من شؤون هذه الشؤون وغيرها على اختلافها المدهش ـ فلا بد لك ـ فى آخر الآخر ـ من ان تعتبرها « كلا » عجيبا واحدا متماسك الاجزاء ، سحرى التماسك ، ويسرى فى هذه الاجزاء ـ على اختلافها « روح واحد » هو هو « الروح » الذى يجعل لكل حضارة من الحضارات البشرية المخلصة لذاتها : وحدة الملامح ، او وحدة الحقيقة او وحدة العبقرية !

وليس يمكن لك ان تدرك ادنى جزئية من جزئياتها ـ بله وظائفها السامية ـ او اجهزتها المركبة التى تحتل فى نطاق « نظامها » جليل الرتب ـ الا بالعودة الى الاصول الجوهرية التى هى اصول ذلك « الروح العبقرى » الـذى يحدوها جميعها !

ذلك ان تلك الجزئيات، وتلك الوظائف، وتلك الاجهزة ليست فى الحقيقة الا « السنة » تنغم اشواق عين « الروح العبقرى » الذى هو روح تلك الحضارة مثلما ان مختلف الالآت الموسيقية ـ النبيلة والوضيعة ـ تنغم بقدر اقتدارها وثروتها ـ وفى نطاق عين السنفونية ـ اشواق عين العبقرية الموسيقية التى نسقت انغامها !

∴

كانت نفسى تزدحم بمثل هذه المشاعر لما كنت على متن طائـرة تفـرى الاجواء فريا فتقطع فى الساعة الواحدة اكثر من ثمانمائة ميل بارتفاع عن الارض يبلغ نحو عشرة آلاف متر !

وكنت لا افكر ـ بين الفينة والفينة ـ فى امر هذه الطائـرة ، وفى امر ارتفاعها العجيب ، وفى امر سرعتها المدهشة ـ الا خطر ببالى انهـا اصدق امارة على توفيق من سماها فاحسن التسمية (Comet IV) اذ خلع عليها رتبة النجوم فى تألقها · وانها لاروع اشارة حسية الى ما يجب أن تتسم به انظارنا من سعة الافق ونوره عندما نعنى بمعالجة قضايانا الجوهرية ·

كنت افكر بالخصوص فى امر «العاطفة القومية» وفى امر تزكيتها بالدول الجديدة التى كافحت ـ مر الكفاح احيانا ـ قبل ان تسترجع مقاليد امورها وحـرية الانفاس !

فما اكثر ما يكتنف قضية العاطفة القومية من الشبهات وضروب اللبس !

وما اكثر ما ينجم عن انطماس معالمها او عن طغيانها على النفوس من الشرور !

وما اكثر ما يرتطم الحريص على تزكية جودها وتفجير خيرهـا فى عـديد الصعوبات !

وما اشد تنوع ما يحيط به من كل جانب مـن الافخاخ والاخطار والمـزالق والمتناقضات ؟

ولست تبالغ فى شىء ان انت اكدت ان تزكية العاطفة القومية ـ كتزكية اختها العاطفة الدينية ـ جزء هام من تزكية العقول او بنائها · وتتطلب من الراغب فى العطف عليها نظرة فلسفية اصيلة تشمل جميع جـوانب الحيـاة البشرية على الاطلاق فتدرج شؤونها احكم التدريج فى سلم دقيق هو هـــو سلم القيم البشرية على الاطلاق كذلك !

وان انت اكدت ان تزكية العاطفة القومية او بناءها ـ جزء هام من تزكية العقول ـ او بنائها ـ فالمهم المهم ان تنتبه لضرورة تحديد مكانة هذا الجزء من الكل او لضرورة تحديد « النسبة » التى بين هذا الجزء وهذا الكل !

وبدهى ان العدل يقضى ـ والعدل قضاؤه لا يرد ـ بان تعطى ذلك الجزء

حقه كاملا لا منقوصا ولا مزيدا فيه ! فلا غيرتك على الكل تحملك على الاجحاف بالجزء ولا غيرتك على الجزء تنتهى بك الى الجور على الكل !

وان انت تجاوزت البداهة ولم تقنع بها اكدت لك ان « سلامة » العقول لا تتم الا بزكاة العاطفة القومية مثلما ان « سلامة » العاطفة القومية لا تتم الا بزكاة العقول نظرا لما بين « الجزء » و « الكل » من الانسجام المكين · وطغيان العاطفة القومية على العقول تجنيس لها وتجنيس للعقول · وانتفاؤها من العقول انتحار لها ومسخ للعقول فالضدان — هنا — يجتمعان باوثق ما يكون الاجتماع من حيث ان الافراط والتفريط كليهما ذميمان !

فما قولك مثلا فى « السمفونية العبقرية » لو طغت عليها — دفعة واحدة — آلة من آلاتها لحيادها عن « دورها » الحقيقى فى نطاق السمفونية ؟ او ما قولك فى السمفونية لو خانتها — اثناء العزف — بعض آلاتها الجوهرية فلم تسمع رناتها الى جانب رنات اخواتها ولم تنسجم معها على نحو ما كان « مقدرا » أن تنسجم معها فى نطاق العزف الشامل ؟

ولا تظنن انى اجنح الى المجاز او التشبيه طلبا لرخيص وسائل البيان او البلاغة · فالمثل الذى اضربه لك اصدق مثل يضرب لتقريب القضية الدقيقة التى نحن بصددها الى الاذهان ! وهو اصدق وصف واوفاه « للماساة » التى هى ماساتنا جميعا ان قليلا او كثيرا فى ميدان العاطفة القومية !

فالعاطفة القومية — فى عرف اصطلاح علماء النفس المحدثين من « العواطف » المركبة ! معنى ذلك انها « مزيج سحرى » من المشاعر — بناؤها صعب عزيز المنال ، وفى حاجة الى « هندسة » دقيقة الاسرار والاصول نادرة الوجود !

ويجب عليك أن تخوض من القضايا الفلسفية الشاملة غمارا وغمارا قبل ان تهتدى الى الكشف عن اسرارها ، واصولها الجوهرية ·

فهذه أصول نفسية أو عقلية ، وهذه أصول خلقية ، وهذه اصول اجتماعية ، وهذه اصول تاريخية ، وهذه اصول سياسية ، هذه اصول مذهبية ، وهذه أصول ثقافية حضارية ، وهذه أصول انسانية على الاطلاق !

وان انت اهتديت الى جميع تلك الاصول كان لا بد لك من الالتجاء الى كل

الوسائل والمناهج التربوية الفنية الدقيقة حتى تراعى فى الاسرة ، وفى المدرسة ، وفى المجتمع ان انت رمت بناء عاطفة قومية صادقة نيرة ..

والذى يجب ان تنتبه اليه هو انك لن تنتهى الى تزكية العاطفة القومية او الى بنائها فتكون على ما ترغب فيه لها من الحرارة ، والصدق ، والنور ما لم تغذ النفوس التى تريدها مضطرمة بضرامها بما يجب ان تغذى به من معارف معينة ، وحقائق معينة ، وفنون معينة فتنشأ على ما يجب ان تنشأ عليه من القابلية للاهتزاز القوى، المنغم، العادل أمام كل ما يجب أن تهتز له النفوس الحرة والشاعرة بجسام مسؤوليات الحرية على الاطلاق !

ولئن اكدت لك - منذ حين - ان العاطفة القومية من العواطف المركبة فلانها تتركب - فى الحقيقة - من عواطف عدة !

فالعاطفة القومية ليست - كما يظن الناس بيننا - مجرد الاحساس بالانتماء الى قوم او مجرد الغيرة على اولئك القوم او على شؤون اولئك القوم . فهذا الى العصبية القبلية اقرب منه الى العاطفة القومية النيرة بدليل تشعب البحوث فى حقها باجواء الفكر الغربى : فهذا يجعل المرجع فى شؤونها الى اساس الجنس ، وهذا الى اساس اللغة ، وهذا الى اساس الدين، وهذا الى اساس وحدة المصالح ، وهذا الى اساس وحدة العوامل والحدود الجغرافية ، وهذا الى اساس وحدة المصير والى ما تشمله وحدة المصير من وحدة الآلام والمحن ، ووحدة فى الانتصارات والامجاد ، ووحدة فى الاشواق والمثل ، ووحدة فى الرغبة فى العيش فى كنف تلك المثل ...

ففى الرحاب الفسيحة الارجاء التى هى رحاب العاطفة القومية النيرة ، المتفتحة تنسجم - ابدع الانسجام - جميع العواطف التى نسميها - على الاطلاق - عواطف الحرية : فمن شعور باستقلال الذات ، الى شعور بحرمة الذات وبخصائصها الجوهرية ، الى شعور بضرورة الدفاع عن الذات ، الى شعور بضرورة تزكية الذات فى نطاق الصدق والاخلاص وصفاء النظرة ومضاء الهمة ، والحرص على العزائم العظيمة والمشاريع الخلاقة فى جميع الميادين ، والجرأة على الاحداث والانظار والعادات التى تخنق الذات ، الى شعور عارم مكين بالتضامن العجيب الذى يربط بين الفرد المستقل والطبيعة والكون باسره !

وقد لا تغالى فى شىء ان انت اكدت ان ادق الصعوبات التى يرتطم فيها الراغب فى تزكية العاطفة القومية انما هى صعوبة الاهتداء الى الطريقة الكفيلة

بأن تحمل الفرد الشاعر باستقلاله الفردى ـ أو المتوهم الاستقلال ـ والميال جبلة الى الانطواء فى حدود ذاته الفردية ، وحدود انانيته الضيقة ـ على الكشف عما يربط ـ بالفعل والحقيقة ـ بينه وبين الكائنات على اختلافها من ضروب التضامن ٠

فالعاطفة القومية لا تقوى ولا تستقر فى ذاته ولا تزكى ، ولا تستنير الا اذا ما فزت باخراج الفرد من مستواه الحيوانى الطبيعى فحملته على ان يعرج الى مستوى البشرية العاقلة الرافة اخلاصا للمثل العليا البشرية !

وليس يمكن ان تفوز بهذا الا اذا ما فاز هو ـ اثناء نضج عقلى يشمل اطوارا عدة ـ بالكشف عن الروابط ، والشعور بحقيقتها ، والشعور بالخصوص بان ذاته لا تزداد الا قوة ، ونموا ، وتفتحا ، وسعة ارجاء كلما تحررت من الانانية الحيوانية الضيقة الافق، واتسعت أجواؤها شيئا فشيئا الى أنأصبحت تسع الكون باسره !

ولو انك اردت ان ترمز لتفتح ذاته ـ هذا التفتح التدريجى العجيب الخلاق ـ لما كان فى امكانك أن تجد رمزا أصدق، ولا ابين ، من دوائر داخل بعضها ذات مركز واحد ٠

فكل فرد يشعر بانه المركز الذى يجب ان تضاف اليه كل الاشياء فى حالة انانيته الاولية ٠ فهو « سجين الانانية » وتحريره لا يتم الا تدريجيا وباكتشافه ـ شيئا فشيئا ـ ما يربط بينه وبين الكائنات من مختلف الروابط ـ روابط التضامن : فهذا تضامن الافراد داخل الاسرة ٠ وهذا تضامن الافراد داخل المهنة ٠ وهذا تضامن الاجيال داخل المجتمع القومى ٠ وهذا تضامن الافراد والشعوب داخل البشرية جمعاء فى زحفها الدائب ، المتصل نحو مزيد من القوة ، ومزيد من الاقتدار ، ومزيد من سعة الافق ، ومزيد من النور !

والفرد الذى ينتهى الى مثل هذه القمم من التفتح العجيب للعالم باسره بفضل ما فيه من مواهب الطبع ـ ٠٠ يصبح اشد شعورا بالروابط الخفية «العنكبوتية» التى تربط بينه وبين الكائنات باسرها فى نطاق تلك الدوائر التى فتح معانيها وقيمها ـ الدائرة بعد الدائرة ٠ مثلما يصبح اشد شعورا بذات الكنز الخفى الذى هو كنز ذاته الحية فيتفجر شآبيب جودها الاصيل سواء أكانت من شآبيب الجمال أو من شآبيب الخير أو من شآبيب الحق ٠٠٠

وليس يمكن ان تجد فى التاريخ بطلا من الابطال ، ولا حكيما من الحكماء ، ولا قديسا من القديسيين ، ولا مواطنا صالحا من المواطنين الصالحين الا كان « نمطا » فريدا ممتازا فى نطاق اسلوب هو اسلوبه من ذلك الفرد المتطور هذا التطور الناموسى الكامل ٠

ولاخص خصائص تلك « النماذج » الفريدة من البشرية الممتازة انما هى فى كون العاطفة القومية سمت لديهم الى اعلى درجاتها فاستحال نسيجها الى حرير هو انفس حرير ناهيك انه انتهى الى التوفيق العجيب بين مقتضيات الذات الفردية ومقتضيات الذات الجماعية او القومية ومقتضيات البشرية على الاطلاق فكان آية ساطعة من آيات الخلق الربانى : اشعاعها هو الاشعاع ٠ ومفعول قولها او فعلها او انجازها ـ مهما يكن جنسه ـ هو « السحر الخلاق » الذى يلهب النفوس ـ خاصة نفوس الشباب ـ فيدعوها ـ الدعوة الملحة ـ الى انتهاج سبل التفانى وراء تحقيق انبل المثل فيخدمون بذلك اعمق مطامحهم الفردية مثلما يخدمون ما يهمهم فى اعماق الذات الجماعية من اصيل الاشواق ٠٠ فيكسرون بفضل ذلك سدودا ، ويفتحون للبشرية آفاقا جديدة مما لاعين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٠٠٠

وان انتم سمحتم لى ـ فى مثل هذا المؤتمر الفلسفى ـ ان اتناسى الى حين ما بين الهند والباكستان فى الساعة الحاضرة من نزاع سياسى ارجوه موقوتا وارجوه منتهيا الى الحل العادل ـ وليس يمكن الا ان تسمحوا لى ما دمت ارى فى هذا المؤتمر ـ جنبا الى جنب فلاسفة من الهند وفلاسفة من الباكستان ـ ذكرت لكم ان مجد القارة الهندية فى العقود الاخيرة كان انبل مجد ، لمجرد ايوائها بين احضانها ثلاثة عقول جبارة من ذلك الطراز العجيب : اعنى المحاطما غاندى ، وربندرانات طاغور ومحمد اقبال ! فكان كل واحد منهم ينغم ـ ما شاء له الاخلاص ان ينغم ـ اروع اشواق العاطفة القومية فى ارحب اجوائها وابدع رناتها ٠٠٠

ولعل كتاب طاغور : « الدار والعالم » (1) اروع آية فنية كتبت فى عالمنا المعاصر فى ذات المشكل الجوهرى الذى هو مشكل العاطفة القومية فى انجذابها ـ أبدا ـ الى قطبين متناقضين فى الظاهر : هما قطب « الانحصار » فى الذات القومية الضيقة ـ « الدار » ٠ وقطب التفتح الى افسح ارجاء البشرية الشاملة ـ « العالم » !

(1) The House and the World.

وانك لتخطيء فهم الكتاب ان انت ظننت انه يجب علينا فى نطاق العاطفة القومية ان نختار بين هذين القطبين : فحيوية العاطفة القومية الخلاقة فى « توترها » الحى ، المفزر ، الاليم ـ توتر وتر القوس المشدود ـ بين ذينك القطبين كليهما ، وفى حرصها ـ حرصها على القوة ، والسلامة ، واليقظة ـ على القطبين كليهما : لا هذا يذهلها عن ذاك ولا ذاك يذهلها عن هذا !٠٠

والمهم المهم ان تنتبه الى ان حياد العاطفة القومية الحق عن صارم سنن ذلك « التوتر الحى » لسبب من الاسباب ـ من شانه ان يجعل تلك العاطفة عرضه لشتى الامراض والانحرافات التى تتاخم ـ حقيقة لا مجازا ولا مبالغة ـ الامراض العقلية التى تعالج بالمارستانات ٠٠٠ وقديما قال الاثر : من قارب الحمى وقع فيه ! (I)

وليس يمكن ان تنتشر فى مجتمع ما تلك الانحرافات التى تنخر العاطفة القومية من دون أن تعرضه لضروب من الاخطار : أركانه تتصدع ، ولحمته تتفتت وتتلاشى ، وقيمه ومعاينه تنطمس معالمها او يعروها الكسوف الجزئى او الكلى ويصبح المجتمع يترصده افلاس الحقيقة مثلما يترصده الغزو والمحق!

ولما كانت القضية التى نحن بصددها على هذا الجانب العظيم من الخطورة بالاضافة للافراد وبالاضافة للجماعات فى عين الحين وجب ان نشير ـ مجرد الاشارة الخاطفة ـ الى الضربين المتقابلين اللذين يقضيان على « التوتر الحى » الذى هو توتر العاطفة القومية الحق فيكونان سبب مسخها او نضوبها او تلاشيها ٠٠٠

ويتجسم هذان الضربان فى جمود العاطفة على « قطب الدار » او فى جمودها على « قطب العالم » على حد اصطلاح طاغور ٠

فجمود العاطفة القومية على « قطب الدار » ينضب معينها او يجنسها ابشع تجنيس فتستحيل « عصبيته ظلامية » من جنس العصبية القبلية الجاهلية ٠ فتضحى «جبرية» قهارة تختنق فى جوها النفوس او تتعفن فتهوى من عليائها الانسانية الى حضيض الغريزة ونزواتها واهوائها وفقرها المدقع ٠

مثل هذه العاطفة القومية عجزها هو العجز فى ميدان الخير ٠ وصولتها هى الصولة فى ميادين الهدم والشر ٠

هى العقم المريع !

(I) لاحظ ما يغلب على العاطفة القومية العربية ـ فى الحاضر ـ من أمارات الهستريا الجماعية تدرك أنا فى حلبة التخصيص النزيه لا التهجم !

اما جمود العاطفة القومية على « قطب العالم » بدعوى التفتح لاوسع الارجاء فهو « انخلاع » عن شروط الذات وعن خصائص الذات ، وهو كفر بنواميس الحياة ·· ذلك انه مطلق الذهول عما يمكن ان نسميه « مبدأ التقمص » فلئن كان الروح لا بد من ان يتقمص فى بدن فكذلك الفرد ، جسما وروحا ، لا بد ان يتقمص فى حقيقة جماعية منها يستمد الغذاء وبعض الخصائص ··

فلا عجب اذا ان ترى جمود العاطفة على « قطب العالم » لا يعتم ان يفقدها « عصب الحياة » و « دم الحياة » وجهم كفاح الحياة فتستحيل احلاما ، وخيالات، واوهاما متبخرة ، وعجزا ، وفرارا من كل المسؤوليات·

وان انت وقفت امام هذين الاصلين الجوهريين اللذين هما اصلا كل انحراف او مرض يعرو العاطفة القومية ـ بالدول الجديدة ـ فتتبعت فروعها العديدة ومظاهرهما المتنوعة وعواقبهما التى لا تحصى عدا ـ ادركت ان ما تشكوه الدول الجديدة ـ وهى هى الاقطار التى تسمى بالاقطار المتخلفة ـ من مختلف الادواء فى الميدان القومى ، وفى مستوى العاطفة القومية ـ ليس ناجما الا عن ذينك الاصلين ·

فما اكثر ما تطالعك العاطفة القومية من وراء اقنعة الدماغوجيا وظلمة الانظار والعصبية الجارفة التى لا تعرف لسنن الواقع معنى أو وزنا لفقدانها « الحاسة » التى تسمى بحاسة البصر بشؤون الواقع !

وما اكثر ما تجد الى جنب ذلك ـ الانتهازيين او الوصوليين على اختلاف كتائبهم يستغلون القومية ويتطفلون عليها ولا رغبة لهم ـ من وراء ذلك ـ الا اشباع مطامعهم الفردية الاشعبية ونزوات الانانية الجامحة !

وما أكثر ما تجد ـ الى جنب هذا وذاك ـ الفاقدين كل احساس قومى ـ صحيحا كان أو غير صحيح ـ فتراهم منطوين على ذواتهم متهاونين بكل واجب او بكل مسؤولية ·

ولا تسل عن الاغلبية الساحقة ممن تراهم اقرب الى الحياة الغرزيه الحيوانية منهم الى الحياة البشرية لكونهم فريسة المرض ، وفريسة العرى ، وفريسة الفقر المدقع ، وفريسة العادات والتقاليد والخرافات التى لا توصف لتحديها كل وصف ·

وان أنت أبيت الا أن تجد لهم نعتا أو وصفا فلست واجداً عبارة أصدق

من قولك عنهم انهم «أهل الكهف» ناموا دهورا فى كهفهم فى معزل مطلق عن تطورات الدنيا ثم ابت صروف الزمان الا ان تجرفهم الى عهدنا هذا - على حالهم القديمة - فلا هم من هذا العهد ولا هذا العهد منهم ٠

هم « الهباء من الافراد » على حد لفظ بليغ من الفاظ محرر الامة التونسية الحبيب بورقيبة ٠

وهو لفظ يشير - بليغ الاشارة - الى ان المجتمع الذى هو مجتمعهم تفتتت لحمته فاتنثر افراده انتثار حبات عقد مزق خيطه ٠ فلا هم يحسون بان ذواتهم تتجاوز ذواتهم الى ذات جماعية شاملة ولا الذات الجماعية الشاملة تتمتع بوحدتها العضوية من حيث هى ذات جماعية شاملة !

شان ذلك « الهباء » المنثور شأن بعض الجزر المشتتة هنا او هناك بالمحيط فى شهادتها على انها كانت جزءا من قارة مترامية الاطراف زلزلت زلزالها فغمرتها مياه المحيط !

وفى الحق فلا عجب فى ان يكون الامر كذلك بل العجب فى الا يكون الامر كذلك !

فان أنت حصرت النظر فى الاقطار الاسلامية - دون بقية الاقطار المتخلفة - وجب عليك ان تذكر اى انحطاط عقلى ومادى كان انحطاطها فى القرون الاخيرة فتجرا عليها الغزاة من كل جانب واضحت مستعمرات المستعمرين على اختلافهم٠ وبقى شانها هذا الشان عقودا متوالية تجاوزت عقود القرن بالاضافة لبعضها ٠٠

ولم تسترجع مقاليد امورها الا بفضل كفاح مرير اضطلع باعبائه المرهقة قلة من الافراد ممن حظوا فى نطاق احتكاكهم بالغرب والغربيين بالعروج الى مستوى « العقول المبنية » محكم البناء ٠

فهؤلاء امكن لهم تنظيم صفوف الجماهير فى نطاق ما لم تعرفه من قبل من عمل جماعى منظم صبور ذى اهداف معينة مرسومة ٠ وامكن لهم ان يضطلعوا باعباء ضروب من الكفاح الصامد وراء المطالبة بحقوق الذات ، وشرف الذات ، واستقلال الذات ، فى نطاق فلسفة واعية باهدافها ومبادئها وطرقها الناجعة فى الكفاح ٠

وانما امكن لهم ذلك لانهم كانوا « الضمائر الحية » التى تعرف المسؤولية

البشرية ووزنها وعظمتها وبرها ، تدرك معانى الجهد والصبر على المكاره ٠ ولا تتردد فى خوض اقسى المغامرات والتضحيات لعجزها عن كل شيء ٠٠٠ الا عن القيام بمرهق الواجبات ٠٠٠

اليس معنى هذا ان اصحاب تلك الضمائر الحية الذين لم يتقيدوا الا بقيود مقتضيات الضمائر الحية يجب عليهم اليوم بعد ان خرجوا مظفرين من معركة الاستقلال ـ ان يخوضوا معارك اخرى هى المقصودة بالذات من وراء كفاحهم الاول ٠ وهى معارك « الرهان » فيها من باب « الحلق » ناهيك انها ترمى الى « اعادة الروح السليب » الى مجتمعاتها المهشمة من جميع النواحى المادية والخلقية والروحية لتهشم « الاعمدة الثلاثة » التى ينهض عليها كل مجتمع اعنى : مذهبها فى الحياة ، واسرتها ، ومدرستها !

وهنا تدرك خطورة هذه القضية التى تطرح علينا اليوم فى هذا المؤتمر : كيف تزكية العاطفة القومية او الروح القومى حتى يمكن لكل فرد ان يشارك مشاركة الضمير الحى ـ فىحياة المجتمع الجديد فتطرد وظائفه على اختلافها فى نطاق ما يتطلبه العصر الذرى من عزة الذات وضمان البقاء فى نطاق ما يتطلبه العصر الذرى من عزة الذات !

ولاصحاب الضمائر الجديدة فى الدول الجديدة تدرك ـ واعية فى ادراكها ـ ان هذه المعارك الجديدة التى يجب عليها خوضها ـ خوض الصدق ، والبصر بحقائق الامور ، والعزيمة الثابتة ـ معارك حياة او موت بالضبط والتمام !

ولما كانت القضية مترامية الاطراف فلا بد لنا من حصرها فى بعض النقاط الجوهرية هى هى النقاط التى نعتبرها الشروط الاساسية « لنجوم » عاطفة قومية سالمة شاملة بالدول الجديدة ٠٠٠

النقطة الاولى : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين ـ بانهم ما تقلدوا مقاليد الامور الا ليقبلوا على عملية جراحية هائلة مرهقة لهم ارهاقها للمجتمع العليل الواجبة معالجته ٠ وتتطلب منهم من الصدق ، ومن الخبرة الدقيقة بالمسائل اشكالا والوانا ٠

وهى عملية معقدة ما امكن التعقيد ومشحونة بالقضايا والمعطيات المتناقضة، ويحف بها من الافخاخ والاخطار صنوف لا تحصى عدا ٠

وهى عملية ترمى ـ على وجه الاجمال ـ : **اولا** الى ترميم المجتمع من جميع

النواحي المادية : الفلاحية ، والصناعية والفنية والتجارية والمالية حتى يمكن استغلال جميع الثروات الطبيعية وتحسين نظام المعيشة للعباد فى نطاق « القدر الادنى » الذى يتفق والعدالة الاجتماعية والحرمة البشرية

وهى ترمى **ثانيا** الى ما سميته « ترميم النفوس القديمة » حتى يمكن لها الانسجام بعض الشيء ــ مع مقتضيات العهد الجديد !

وهى ترمى **ثالثا** ــ وبالخصوص ــ الى بناء نفوس النشء الجديد ــ جديد البناء ــ حتى يمكن استغلال « الثروات الانسانية » استغلالنا الثروات المادية : اعنى الى اقصى الحدود !

فنشر التعليم وتعميمه بين البنات والذكور على حد السواء من الشروط الاساسية بل قل الحيوية لا اكثر ولا اقل !

وكذلك نشر اصول حفظ الصحة وتعميمها بجميع انحاء المجتمع لانقاذ المجتمع من كل الامراض التى تفتك به فتكا ذريعا .

وهو ميدان لا يمكن فيه الاكتفاء بمحدود الجهود او بمحدود العلاج : اما على سبيل الدعاية ، او على سبيل ذر الرماد فى العيون او على سبيل مجرد الاحسان ــ على نحو ما كان يجرى فى عهود الاستعمار ...

ولنلاحظ عرضا ــ ان هذا العلاج الشامل لشؤون الصحة له مفعول جبار فى علاج « معنويات » الافراد و « معنويات » الامة باسرها : ذلك انه ينقذ الضمائر من عبء وصمة العار والخجل امام فاحش المناظر وامام كل ما يثير فى النفوس الاشمئزاز والتقزز والقرف ...

النقطة الثانية : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بان امكانيات المجتمع الجديد محدودة من الناحية المادية ــ اعنى المالية، والفنية ، ومن الناحية الانسانية ، اعنى من حيث عدد « النخبة » ــ الحق ! ــ من ابناء المجتمع الجديد ممن حظوا بثقافة عصرية حق تمكنهم من الاضطلاع بالمهام الجديدة فى سبل ترميم المجتمع من الناحية المادية اولا ومن « ترميم النفوس القديمة » ثانيا ومن بناء العقول الجديدة ثالثا !

وهو شعور ثمرته ضرورة استغلال جميع الامكانيات الموجودة فى نطاق « الاقتصاد الحكيم » وضرورة اجتناب كل تبذير ! ثمرته ــ بالخصوص ــ ضرورة معرفة ما يجب تقديم معالجته من الامورعلى غيره للفوز بأنجع النتائج

في اقصر الآماد ! وفي هذا من المتناقضات اشكال سيما اذا مـا اعتبـرت « وزن » الاهداف المادية او الادبية المطلوبة لما بين « وزن القيم » و « وزن الشؤون المادية » من التغاير المدهش !

النقطة الثالثة : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بضرورة تصفية حساب التراث العقلي الجماعي ـ وخاصة في الميدان الديني ـ لانقاذه مما تراكم عليه من شتى الاوهام الظلامية اثناء عصور الانحطاط حتى يمكـن الربط الوثيق بين الماضي الحي ومقتضيات العقلية العصرية لقطع دابر كل دماغوجيا وتوفير اسباب « الاخلاص الحي » للذات الحية المجددة واستئناف السير في نطاق « وحدة الذات التاريخية » لا في نطاق ما يعروها الان من ضروب التصدع من جراء ما لا يزال السواد الاعظم من الناس يشعرون بـــه من شديد التناقض بين عقلية أمسنا ـ وهي عقلية ما زالت بيننا ! ـ وعقلية يومنا ! ...

وهو هو الامر الذي جعله المفكر الاسلامي محمد اقبال ـ فخر الباكستان ـ برنامج حياته اذ عنى ـ بالجد الذي كان جده ـ بما سماه بحق « تجديد بناء التفكير الاسلامي » . وهو تجديد لا يمكن ان يتم الا على اساس محاسبـة الضمير دقيق المحاسبة في نطاق مضطرم الصدق : ولهذا العامل ـ ولهذا العامل وحده ! ـ احدثكم في هذا الصراحة الغليظة المطلقة في غير ما احتياط او حـذر !

هذا من الناحية المذهبية الشاملة عامة !

اما من ناحية العاطفة القومية خاصة فـلا بد لنا من الاعتنـاء ـ جدى الاعتناء ! ـ بتصفية حسـاب الانظـار المتناقضـة فيما بين « مفهــوم الامـة الاسلامية » على نحو فهم القدامى له ـ وما يروج الان من الانظار الغربية في شان القومية وفي شان « الشعوبية » ـ في معناها النبيل اعنى الاممية

وهو مشكل ليس بالعسير حله على ضوء ما ذكرنا لك من الانظار سابقا عما يربط بين الكائنات افرادا وامما ـ من مختلف ضروب التضامن الحي المكين في نطاق صفاء النظرة والاخلاص الحي للحقيقة البشرية ـ لا في نطاق ظلمة العصبية ، وصراع المنافع والاطماع وضروب الهيمنة !

ومما يزيد هذه القضية خطرا على خطر ان كان اكثر الناس « يحلمون » عند معالجتهم اياها . فلا يقيدهم في ذلك قيود الواقع ولا مقتضياته ونواميسه ولا صرامة الاحداث ولا صرامة المنطق !

فلا هم يحتاطون ولا هم ينتبهون الى ان « تجسيم » الحلم قد يضطرهم الى قطع مفاوز ومراحل !

فبناء الامة الاسلامية بناء الوحدة ليس بالامر السهل فى نطاق ما ورثناه عن عهود افلاس الحقيقة وعن عهود الاستعمار من شتى الرسوم الدراسة، والانقاض والاوضاع المادية والعقلية النخرة !

اليس يجب ان نقضى فترة من الزمن يمكن ان نسميها فترة معالجة الادواء على اختلافها وتضميد الجروح وتعزيز اركان الذات على اختلافها ؟

السنا فى حاجة الى « نقاهة » قبل التفكير فى التوحيد ؟ اليس احسن ان نضم « وحدات » قومية سالمة بدلا من « وحدات » تشكو صنوفا من الالآم ؟

ألسنا بذلك نجنب أنفسنا أشكالا من الانفجارات والخيبات المرة ، والعثرات التى قد تقضى على « الحلم » القضاء الحاسم النهائى ؟

ومما يدل على خطورة القضية وعلى خطورة العقلية ـ غير الواقعية ـ التى تعالجها فى غير ما انتباه لمتجدد الخيبات وفى غير ما اقامة وزن لكل الصعوبات الناجمة فى الطريق ـ انك لا تتعرض لذلك بالتلويح او بالتحليل من دون ان تلصق بك شتى التهم ! وما درى المتهمون ان « الدول العصرية » ليست مجرد « القبائل » ذوات النظام القبلى البسيط ! وانما هى تنهض على « اجهزة » فنية ومادية وعقلية وانسانية من اعز طراز · وان بناءها مما يتطلب عقودا من الجهود الفنية المتواصلة ممن بقوا دهورا ـ وما زالوا ـ على ابشع احوال الانحطاط العقلى والمادى · وهل شاننا غير هذا الشان ؟

النقطة الرابعة : ان انقلابا عقليا على هذا الجانب العظيم من الخطورة رهانه اجل رهان : حياة او موت بالاضافة لملايين من البشر كافحوا تحت قيادة ابطالهم البررة جهم الكفاح لكسر ما كان يخنقهم من الجبرية القهارة : جبرية الحكم الاجنبى فابلوا فى ذلك البلاء الحسن المظفر ·

افلا يجب على ابطالهم البررة ان يقودوهم الان لخوض غمار كفاح جديد اثقل وطاة فى سبيل تحريرهم من جبرية اقوى واعمق مدى واخطر مفعولا اعنى « الجبرية الباطنة » التى تنخر النفوس والهمم بشتى الخرافات والاوهام والاحلام المتبخرة على وهج جحيم الواقع ؟

وللقلة القليلة من اولئك الملايين تدرك ـ دقيق الادراك ـ انه يجب عليها ان تخوض معركة اضخم واثقل من معركة التحرر من الحكم الاجنبى ·

وهى معركة اسميها « **معركة الثقة** » نواميسها أدق وألطف وأصعب من نواميس المعارك المادية ٠

وهى ـ على الاطلاق ـ أعز الشروط التى تشترط لتزكية العاطفة القومية فى صدق اضطرامها فى عموم مواطنى الدول الجديدة ٠٠٠

ولا غرابة ٠ فاقباسها اقباس الخلق فى انصع آياته ؟

فالهباء الساطع المنثور من افراد الامم المتخلفة لم يكن « الهباء » الا لان النفوس فقدت كل ثقة ٠ وفقدت كل طمانينة بما قاسته من الويلات والخيبات والانكسارات ـ طيلة الدهور ـ تحت سطو الفقر، وتحت سطو الجوع، وتحت سطو العرى ، وتحت سطو الجور ، وتحت سطو الذلة والمهانة !٠٠٠

وليس يمكن ان « تلتهب » فتصبح « نفوسا آدمية » لها نبل اندفاعات النفوس الآدمية ، ولها نخوة المغامرات الآدمية الا اذا ما ارجعت لها « الثقة » وارجعت لها « الطمانينة » وارجعت لها « الايمان » بطهر المقاصد وزكاة المشاريع من وراء عظيم العزائم الجماعية !

ولبعض زعماء الشعوب المتخلفة ـ امثال المهاطما غاندى بالهند والحبيب بورقيبة بتونس ـ يعرفون جيد المعرفة ما وجب عليهم ان يدفعوه من باهظ الاثمان ، وما وجب عليهم ان يبذلوه من مرهق المجهودات ، وما وجب عليهم ان يتحملوه من مر التضحيات قبل ان يفوزوا بتلك « الثقة الغالية » وباطمئنان الجماهير اليهم فامكن لهم ان يقودوها فى ضروب من الكفاح كانت تبدو لاحظ لها فى النجاح نظرا الى انهم تجرؤوا على أعز الدول الغربية سطوة وجبروتا !

ومع ذلك فبمثل ما فازوا به من « الثقة » المطلقة من قبل جماهير كان ينخرها الوسواس وسوس الشك امكن لهم ان يفتحوا « سبل الامكان » امام ما كان يبدو مستحيلا !

وهنا تدرك الوزن الحقيقى الذى هو وزن العناصر الادبية ٠

فهى هى التى ترجع للنفوس قوتها ـ وصمودها وثباتها وتفانيها وصولتها واصل جبروتها !

وهو جبروت يوهن الحديد !

واليه تطأطىء كل الرؤوس !

امن العجيب بعد هذا ان نؤكد لك ان تزكية العاطفة القومية ، وترسيخ قدمها فى النفوس وتوجيهها حتى تتحمل اعباء شتى المسؤوليات والواجبات والتضحيات على اختلافها ليس يمكن ان يتم ما لم يقدم قادة الدول الجديدة ــ الف دليل ودليلا ــ على انهم اهل لمثل تلك الثقة • بما يظهرونه من الحرص على الاستقامة، والنزاهة، وطهر المقصد، والغيرة على المصالح الاجتماعية لتوفير اسباب العدالة الاجتماعية •••

وانه ليكفى ان يخامر الناس فى ذلك ادنى شك ، فى ظرف من الظروف ، او فى لحظة من اللحظات ــ لتنفجر انفجارات تحطم فى ثوان مساعى عديد السنين •

وليس من شك عندى ــ فى انه يمكن لك على ضوء هذه الاعتبارات ان تدرك حقيقة المعانى التى تلوح اليها الكتب المنزلة عند ما تؤكد انه يكفى أن يوجد فى أمة عشرة من « الرجال العادلين » لينقذوها مما تشكوه من صنوف الشرور ويبعثوها حية ــ سالمة حسا وخلقا ومعنى !

وهو اصل اصيل مما سميته آنفا « اصول ترميم النفوس » !

ولك ان تضيف اليه صنوه القرآنى : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم !

وليس يمكن ــ البتة ــ ان يغيروا ما بانفسهم الا فى نطاق الصدق والعدل والبصر بحقائق الامور !

النقطة الخامسة : بالرغم من ان ضيق المجال الزمنى المخصص لدراسات المؤتمر يضطرنى اضطرارا الى الايجاز والى التلويح الى العناصر بدلا من التحليل فلا بد لنا من الوقوف امام عنصر خطير هو من اخطر العناصر الحرية بتزكية العاطفة القومية بالاقطار المتخلفة •• واعنى بذلك جنس الجو السياسى الذى يجب أن يكتنف تلك ألاقطار اثناء فترة اعادة بنائها وبناء حقيقتها المادية والاجتماعية والانسانية •

وليس من شك فى انكم انتبهتم الى ان هذا العنصر السياسى طالعكم مرارا اثناء هذا الحديث خلال تلك الشروط المرهقة التى اشترطها على القادة المسؤولين عن مصائر الدول الجديدة فكلفتهم بما كلفتهم به من ضروب الشعور الحاد العنيف بشتى المقتضيات التى هى مقتضياتها الحاضرة ومقتضيات بعث شعوبها قوية سالمة !

وانما كان الامر كذلك نظرا لجنس الوظيفة التى هى وظيفتهم الحقيقية فى ميدان السياسة فى الفترة الحاضرة : فهم بناة ضمائر الافراد والجماعات قبل أن يكونوا بناة الهياكل المادية والاجتماعية ! أو قل انه يستحيل عليهم ان يبنوا تلك الهياكل المادية والاجتماعية ان لم يستعينوا على ذلك ببناء الضمائر الفردية والجماعية مثلما أنه يستحيل عليهم بناء الضمائر الفردية والجماعية ان لم يستعينوا على ذلك ببناء تلك الهياكل المادية الاجتماعية ...

هذا فى عرف المنطق هو « الدور » !

الا ان اعادة بناء الامم المتخلفة رهن فوزهم بكسر هذا الدور ! والى جنب هذا الدور أدوار أخرى عديدة . ولذلك أكدنا أن قضايا الاقطار المتخلفة ـ وخاصة فى ميدان تزكية العاطفة القومية ـ مشحونة بالمتناقضات !

ولست فى حاجة الى ان تكون « فيلسوفا سياسيا » لتدرك ان تدريب العقول على الاضطلاع باعباء شتى المسؤوليات التى هى مسؤوليات الحرية ـ وهى فى صعيد يناقض بالضبط والتمام ما تعوده ابناء الاقطار المتخلفة من الاتكال الكسول ، والذلة ، والتخاذل ، والجبن العقلى ، وظلمة الاهواء ، وفوضى المشاعر ، مما يقضى على المسؤولين ان يلازموا ضربا مرهقا من اليقظة والحزم والتفانى فى سبل الاهداف النبيلة التى يسعون وراءها . فلا انت ترخص لهم فى ان يذهلوا لحظة عن تلك الاهداف ولا انت ترخص لهم فى ان يذهلوا عن خصائص العقول التى يجب عليهم « تحرير اتجاهها » جوهرى التحوير حتى تضحى قادرة على الاضطلاع بجسيم المهام فى ميادين الخلق والانجاز ...

ولئن كان ـ فى العربية ـ تصريف الافعال المعتلة ادق من تصريف الافعال السالمة فكذلك فى الميدان الانسانى فان سياسة العقول المنحرفة اكد ـ بما لا يقاس ـ من سياسة العقول السالمة !

وقد انتبه لذلك الجاحظ الكبير ـ فى القديم ـ حينما لاحظ انه ليس أكد على ذوى العقول من سياسة العوام . اليس معنى ذلك ان زعماء السياسة فى الاقطار المتخلفة يجب ان يعتبروا ان « العدة العقلية » الوحيدة التى يعول عليها انما هى عدة « الضمائر الحية » اليقظى البصيرة الخيرة ... هذه العدة هى « النور » الذى يجب ان يضىء كل اعمالهم وكل حركاتهم وكل اقوالهم ان كانوا يرغبون حقا فى بعث شعوبهم البعث المنشود !

وليس يمكن ان يكون التوفيق الكامل نصيبهم ما لم يدركوا ان شانهم بالضبط شان المربى من الاجيال الفتية التى يريد تربيتها ٠٠٠ نظرا الى ان مجتمعاتنا ليست فى الحقيقة الا « مدارس هائلة » يجب تنظيم النشاط بها تنظيم نشاط العقول غير الراشدة سعيا وراء بلوغها الرشد! ولا تظنن انى أقول هذا لمجرد التشبيه او للمبالغة ٠ فانى اومن ـ ارسخ الايمان ـ بانه اصدق تخصيص واوفاه للواقع ٠٠٠ واليه تجب العودة بالاضافة لكل من رام تسطير معالم سياسة رشيدة فعالة ناجحة بالاقطار المتخلفة ٠ ومنه يجب أن تشتق كل المبادىء والاصول التى هى مبادىء السياسة واصولها !

وللخطران الجسيمان اللذان يجب اجتنابهما فى هذا الصعيد ينحصران فى اعتبار ان القهر او الاكراه او الاستبداد من الامور الضرورية او فى اعتبار ضرورة الانتصار للديمقراطية والعمل باساليبها ٠٠٠

فمهما تكن غيرتك على الديمقراطية وعلى مبادئها وعلى وسائلها وعلى اساليبها فلا بد لك من الاعتراف بان شروطها من اعز الشروط ٠ وما دامت هذه الشروط غير متوفرة فالالتجاء الى المبادىء الديمقراطية ليس يمكن ان ينتهى الا الى الدماغوجيا والفوضى ٠٠

وبدهى انه ليس بالقهر ولا فى الفوضى يمكن لك ان توفر الاسباب الكفيلة بالانتهاء الى هذه الغاية النبيلة : ان تستشعر النفوس عزة الحرية !

واذا فلا بد لك من التسليم بان السياسة الوحيدة التى تضمن للاقطار المتخلفة البعث المنشود فى نطاق القرار المنشود ـ ولا يمكن ان يتم البعث الا فى نطاق القرار المنشود ـ انما هى سياسة حازمة ، يقظى عادلة ، تحرص الحرص كله على مراعاة نواميس تطور النفوس التطور الحى السالم٠٠ ففى نطاق مثل هذا الجو السياسى ـ وفيه وحده ـ يمكن ان تزكى العاطفة القومية على اكمل وجه !

النقطة السادسة والاخيرة : اذ كنا بصدد استعراض الاصول العامة التى يجب الا نذهل عنها فى شان تزكية العاطفة القومية فليس يمكن لنا ان نتناسى أصلا أشد تواضعا فى الظاهر ، ولكنه لا يقل خطورة عن سائر الاصول ٠ وهو اصل تربوى صرف ٠

وينحصر هذا الاصل فى ضرورة « تغذية » العاطفة القومية فى النفوس

الفتية بنصوص ادبية او شعرية او تاريخية او فلسفية متخيرة منتقاة تدرس فى المدارس وتدرج حسب درجات التعليم ٠

ولا اريدها نصوص وعظ وارشاد وانما اريدها نصوصا فنية جذابة تغرى النفوس اغراء الوحى والايحاء فى حياة الابطال وفى تضحياتهم المرة النبيلة وفى اضطلاعهم الجهم بجسيم الامور وعظيم العزائم كى يسعد غيرهم !

ولا باس ان تكون دروس التاريخ تشير الى العبر من الاحداث الحاسمة التى كانت « منعرجات » بناء الذات فى آلامها ، وفى أفراحها وفى مجدها ، وفى انكسارها ، وفى دموعها ، وفى ابتساماتها ٠٠٠

فمثل هذه الدروس اقوى بما لا يقاس من اى ضرب من ضروب الوعظ او الارشاد او الدعاية ٠

وليس بخاف ان موروث الوعظ وموروث الارشاد وحديث الدعاية تنتهى دائما الى عكس النتائج المطلوبة منها لما يحف بها من الضجر والسآمة وشك الوسواس وظلمة العصبية ٠٠٠

وليس يمكن ان اختم هذا الحديث المرهق بطوله بغير الشكر الصادق لمنظمى هذا المؤتمر فى شان قضية حيوية كهذه القضية ٠

ففى هذا المؤتمر وفى مثل هذا الجو من النقاش الصادق النزيه يحلو للارادات الصادقة أن تجابه اعوص المشاكل مع وطيد الرجاء فى أن تساهم ـ بقدر الجهد ـ فى سبيل توطيد اركان مستقبل ثابت، قار، لا تزعزعه النوائب والمحن لانه مستقبل الايمان الصامد والعمل الخصب فى نطاق التفاؤل العريض !

بشاور فى 12 افريل 1963

محجوب بن ميلاد

حياة ماضية

لـ Arthur Rimbaud

تعريب : محسن بنحميدة

قديماً
إنْ صدقتني الذكرى

كانت حياتي مأدبةً تنفتح فيها جميع القلوب
وتسيل فيها كلّ الخمور...
وإحدى الامسيات أجلست الجمال على ركبتيّ
فوجدته مُرّ المذاق

فشتمته

فتحصّنت ضدّ العدالة
وفررتُ.
أيّتها الساحرات أيها البؤس أيها الحقد
إيّاكم جميعاً أودعت كنزي
وبلغت الحدّ الذي يتلاشى فيه في عقلي
الأمل البشريّ كلّه وعلى الحبور جميعه
وثبتُ وثبة الوحش الصامتة أريد خنقه
ناديتُ الجلادين لأعض
— وأنا أهلك —
مقبض بنادقهم

ناديتُ البلايا لأختنق
مع الرمال مع الدم
وكانت التعاسة إلاهي
فاضطجعت الوحل وتجففت على ريح الجريمة
وتلاعبتُ بالجنون ساخراً منه
فأهداني الربيع
ضحكة الابله الفظيعة

وَأخيراً – وَقَدْ وَجَدْتُنِي عَلَى وَشْكِ الْحَشْرَجَةِ الأَخِيرَةِ –
فَكَّرْتُ فِي البَحْثِ عَنْ مِفْتَاحِ المَأْدُبَةِ الْقَدِيمَةِ
الَّتِي قَدْ أسْتَعِيدُ فِيهَا شَاهِيَتِي

فَوَجَدْتُ الاحْسَانَ ذَلِكَ الْمِفْتَاحَ
وَهَذَا الالْهَامُ لَدَلِيل عَلَى أنَّنِي كُنْتُ أحْلُمُ

« سَتَبْقَى ضَبُعاً... »
هَكَذَا صَاحَ الشَّيْطَانُ صَارِخا
وَقَدْ تَوَّجَنِي بِتِلْكَ الخَشَاخِيشِ الْمُحَبَّبَةِ
وَأرْدَفَ قَائِلاً :
« أحْرِزْ عَلَى الْمَوْتِ بِكُلِّ نَهَمِكَ
وبِأنَانِيَتِكَ وَبِعَظَائِمِ آثَامِكَ »

آهِ لَقَدْ بَلَغَ سَيْلُكَ الزُّبَى أيُّهَا الشَّيْطَانُ الْعَزِيزُ
لَكِنْ – نَاشَدْتُكَ اللهَ – لِتَكُنْ حَدَقَتُكَ أقَلَّ اغْتِيَاظاً
وَفِي انْتِظَارِ تِلْكَ الْخِيَانَاتِ الصَّغِيرَةِ
الَّتِي تُبْقِيهَاإلى حِينِ
– أنْتَ الَّذِي تُحِبُّ فِي الكَاتِبِ خُلُوَّهُ مِنَ المَدَارِكِ
الْوَصْفِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ –
إنِّي أقْطَعُ لَكَ مِنْ مُذَكَّرَتِي – مُذَكَّرَةِ الْمَلْعُونِ الْهَالِكِ –
هَذِهِ الْوُرَيْقَاتِ الشَّنِيعَةَ.

تعريب محسن بنحميدة

ملاحظة الناقل :
هذا المدخل لـ "فَصْلٌ بِجَهَنَّمَ" Une saison en Enfer
للشاعر العبقري الفرنسي العظيم Arthur Rimbaud
والعنوان حياة ماضية وضعناه نحن وَلاَ وُجُودَ لَهُ بِالاصْلِ الفرنسي.

من آثار مصطفى آغــا

مقــامـة

من الاصلاب الى التراب

حدثنا الانسان ، المتجمل بالدراية والعرفان ، قال غادرت منازل الاصلاب بسلام، ووليت وجهى شطر منازل الارحام، فسبحان من خلق، خلق الانسان من علق ، ثم مضغة ، ثم عظما ، ثم كسا تلك العظام لحما ، وعندها تم تكوينى، ودخلت فى طور النمو من حينى، هذا وانا سجين البطن دفين الاحشا، مساق الى ما يراد منى لا الى ما اشا ، تارة فى عراك واخرى فى سكون، فهل انـا سعيد ام محزون « لا هذا ولا ذاك ، فلست بالافاك » عزلة تامة وانزوا ، لا فراش لا قطعة من غطاء عارى الجسد حافى القدم ، افى يسر انا ام فى عدم ، « لا هذا ولا ذاك ، فلست بالافاك » لا طعام ولا جوع ، ولا يقظة ولا هجوع ، ولا قنوط ولا صبر ، ولا تفكير فى التخلص من ذلك القبر ، فى غربة مجردة عن الحنين ، فلا تحسر ولا تاوه والا انين ، انعيم واستمتاع، او لوعة وارتياع ، « لا هذا ولا ذاك ، فلست بالافاك » حياة فى ديجور ، ولا شوق فيها للنور ، وحرارة قاربت الجحيم ، ولم اتطلب فيها هبا من نسيم ، اعذب هذا ام عذاب ، حيرة وغفلة وارتياب « لا هذا ولا ذا ك ، فلست بالافاك » بعد حين قضيته فى ذلك الاحتجاب ، شعرت كانى مللت ذاك الحجاب ، بل رايتنى كانى فــى اختلاج واهتزاز ، وكانى اتحفز للبراز ، ولم يعد يطيب لى المقام ، وسئمت نفسى ظلمة الارحام ، اترانى اتمنى منقذا ، او افتش منفذا ، هل هذا صحيح، امتالم انا او مستريح ، « لا هذا ولا ذاك ، فلست بالافاك » لم يفدنى بعد بذل الجهود الا صرخة من ولود ، دفعتنى الى العرا ، فاذا بى اسمع وارى ، خرجت مضرجا بالدما، كانى آيب من حملة شعوا ، واول ما ادركته فى فضائى الجديد، هو انى صرت قطعة من جليد ، ان هذا هو العذاب الهون ، ليت شعرى بعده ما سيكون، لا لذة بعد ذلك للانسلاخ، عن حشا كان نعم المناخ، بل عجيجا مسترسلا ، وعملا متسلسلا ، عشت عيونى عن اضواء الصباح ، واضربى تالق المصباح، فلزمت البكاء والعويل ، ولم اجد للخلاص من سبيل ، وكانى اقول فى صراخى دثرونى ، وحيلوا بين النور وجفونى، ثم تعاقبت الاوصاب ، وتنوعت اصناف العذاب ، وكانى اقول يا اهل الشفقة ، اعيدونى ان قدرتم علقه ، قسما لو قدرت لكنت القافل الآيب ، الى ما بين الصلب والترائب ، نعم كانت اللبان قرائى ، ولكنها اذكت ذات الضرام باحشائى ، ولما لم اصبر على الم الاحتراق ، صحت ربى أهذا غسلى ام غساق ٠ انهما اعدا لكل كفار عنيد ، فهل أنا عنيد أم وليد ربى أنا البرىء فمالى ألاقى عذابا فياليتنى كنت

قبل هذا ترابا ، قلت هذا ولكن ليس باللسان المبين ، بل بالصراخ والتأوه والانين ، فالوداع يا مرابع الارحام ، وعليك منى تحية وسلام ، كنت فيك ذا راحة وسكون ، ليت شعرى هل اعود وما عسى ان يكون ، الان جاء دور الكلام فقلت دون قصد ولا اتهام ، كلمة امى فكانت ام الكلام ، وكـان بها تعلقى واليها شوقى ، ثم بعد حولين كاملين ، ضربوا موعدا ليوم البيـن ، اعنى يوم افتراقى عن الثدى ، وتحملى مرارة الصدى ، وبعد ان ساءت الحال ، وانقطعت الامال ، قدموا الى مائدة الطعام ، واطعمته بالقهر والارغام ، وهكذا عوضوا ثدى الحنون ، بسلة وملاعق وصحون ، ها انا الآن صرت صبيا ، ناشطا لاعبا جريا ، فـى انتشاء ولست بالسكران ، وجنون ولم يمسنى جان، تلقفنى كرة الاولياء ، بصولجة القوة والولاء ، منحونى أوقات لهـو قليلـة ، وارهقونى بدروس طويلة ، معززة بوعيد وارهـاب، بحكم بتنفيـذ فعقاب ، فخضت فى غمار تلـك الهيجاء ، مرة فى احرف الهجاء ، وما اعتزلتها حتى ارتميت فى احضان الاملاء فكان عين البلاء ، ونفس العناء ، فقمت انا بمهمة التحريف ، وقام المعلم بالتعزير والتخويف ، ولم اكد اتقن مخرج اللفظ ، حتى سقطت فى هوة الحفظ ، فسبحت فى يم ماله من قرار ، واعـانتنى على اهواله الاقدار ، وقد كاد ان يلتقمنى فيه حوت العناء ، ويحرمنى لـذة السلامة والهناء فاقبر قبل الممات، فى تلك الثـلاث ظلمـات ، او امكث فى سفر وسرى ، ولا اظنه ينبذنى بالعرا ، ها انا الان صرت غلاما ليت هـذا الدور يبقى دواما ، فلقد انفتحت لى ابواب الامـانى ، ورحبت بى الاوانس والغوانى ، واديرت لى الاقداح ، وعكفت على الملاح فيومـا احتسى كؤوس الصفاء ويوما اتجرع مرارة الجفا فخلعت عنى ثـوب الانقيـاد ، لاوامر الاباء والاجداد ، ها انا اليوم فى دور الشباب ، مستمرا فى صحبة ذات الحب وذات الحباب مقتطفا زهرة الحياة غافلا عن حومة الممات ، خلصت اوقاتى من الكزر ، واستهنت بكل خطر ، وما زلت سابحا فـى هذا الفـرات ، مرتشفا من سلسبيل رائق الكاسات ، حتى حانت ساعة النكبة ، فدفعتنى موجته العذبة، فاذا بى فوق برزخ الكهولة ، ولعمرى انها نكبة ولكنها ليست مهوله ، عيش قريب من الشباب ، لا أقول انه عذب ولا أقـول عذاب ، نقلة كانت آية ذات اعتبار ، وياليتنى قولى فيها القرار ، بل صارت منسيـة منسوخة ، اذ سقطت منها الى هوة الشيخوخة عندها قلت ليت الشباب يعود، ليته بالرجوع يجود، كيف لا ولا قيام الا بعناء، ولا سماع الا بطول نداء ، سعال متعاقب ، ومدامع تتساكب ، اوهام وسجون ، وحركة احسن منها السكون ، هذا والهرم الفظ ، يريد ان ينقض ، وفعلا فصارت اليقظة مناما ، والمنامة يقظة واحلاما ، وبعد هذا فهل تصرمت الآمال ، وهل قلت لا اقامة ولذا الترحال ، كلا فقد اتت قبلنا اقوام ، بلغوا الف عام ، ولا احتياج الى برهان ، فقد اثبته القرآن ٠

ندوة القراء

نظـرة عـابـرة

في (الاقليمية والنقد الادبي)

بقلم : محمد الهادى العامرى

قد قلت فى ختام الفصل الذى نشرته بالعدد السادس 1963 من مجلة الفكر الغراء فى التعريف بناحية من نواحى الادب الخزندارى أو أدب أمير شعراء الخضراء محمد الشاذلى خزندار المأسوف عليه ذلك الاديب الذى أغار عليه الاستاذ الدكتور ابراهيم السامرائى غارة شعواء اسخنت عيون القوافى ... انى سانشر مقالا عن بيان الامير فى دراسة مستفيضة ومن سوء حظ أمير الشعراء أن ادركته حرفة الادب وغمره ذلك الحرف الذى لا يراعى فى الاديب الا ولا ذمة فلم ينصف فى حياته التى لم يكن فيها كما زعم الدكتور وزيرا ولا مشيرا ولا محظوظا وانما عاش عيش المستضام المعذب • على ما فيه من عبقرية ونبوغ وعظمة نفسية وضلاعة ادبية وأبى الحظ العاثر الا ان يئد أدبه معه فى لحده وقد نبشه الدكتور ليطمس معالمه على حد قول أبى الطيب

وكاننا لم نرض بريب الدهر فينا ... حتى اعانه من اعانا

وفعلا شرعت فى الدراسة الموعود بها ولكن ظروفى الخاصة والاعمال العلمية والادبية التى تتطلب أوقاتا وجهودا متوالية ضايقتنى فتعذر اتمامها وهى الآن على وشك الانتهاء وستنشر قريبا ان شاء الله على صفحات هذه المجلة العاملة المجاهدة المناضلة عن الادب والاديب •

وما راعنى أخيرا الا ومجلة الفكر تطلع علينا بمقال الدكتور الاستاذ السامرائى (الاقليمية والنقد الادبى) يحمل ردا جديدا ارهف فيه الدكتور الحد فى الغارة على أمير الشعراء أصالة وعلى شخصى (تبعا) ولم أكد أطالع ذلك الفصل حتى الفتت نظرى أوهام خاطئة فى نقد بيان أمير الشعراء من الناحية اللغوية تلكم الاخطاء التى عجبت لصدورها عن قلم لا أقول كما قال الدكتور

انه غمس فى الحل أو الماء ... ولكنى أكل الحكم على ذلك القلم الذى يمسكه الدكتور الى القارىء ... مؤجلا الرد على الدكتور فى الروح الادبى والاسلوب الشعرى والاهداف للدراسة التى سأنشرها قريبا على صفحات هذه المجلة ان شاء الله راجيا المعذرة من الاستاذ الا (يزعل على) اذا طلبت منه أن يتريث والا يحقد على اذا نصحته بان يتأمل والا يغتاظ اذا رغبت منه أن يتثبت فى الردود والا يندفع لاول بارق يبدو له خشية أن يقع فى الخطأ الذى ينسبه الى غيره فيكون كناطح الصخور (استغفر الله من كلام يشق على سيدى الدكتور سماعه ولكن هى الحقيقة مرة المذاق لا يتحملها الانسان الا على مضض) ولا سبيل لاخفائها .

سيدى الدكتور حضرتكم تقولون ما يلى بالحرف الواحد (ولست ارى وجها لمجاوزة الشاعر أو قل أمير الشعراء للفصيح المشهور فى قوله :

« وطالب به الخصوم الالدا » فالالد صفة لمفرد وهو الخصم أما الخصوم فينبغى ان توصف بالجمع فكان يلزم ان يقول (الخصوم اللد) جريا على قوله تعالى (وتنذر به قوما لدا) فاللد بضم اللام جمع الالد . وماذا عسى السيد العامرى أن يقول فى هذه التجاوزات أهى هنات من حقها ألا تذكر أم هى مراعاة اقتضاها الوزن وكيف لا يحاسب بعد أمير للشعراء فى ارتكاب شىء من ذلك اه .

والعامرى يقول لحضرة الدكتور السيد ابراهيم السامرائى مع كامل الاجلال والاحترام : على رسلك يا دكتور فما كنت أظن أن يغيب عن ذهنكم الوقاد وبراعتكم التفرقة بين المفرد والجمع (فى العربية) وهى درجة نحاشى الدكتور أن يصل اليها .. وانما نطالب بها تلاميذنا الصغار بالمكاتب .. فأمير الشعراء يا حضرة الدكتور لم يصف الجمع بالمفرد كما توهمتم وانما وصف الجمع بالجمع جريا على ما ألفه فى امارة القوافى التى نسجها على الاساليب الفصيحة التى وردت عن العرب (لانه محافظ كما لاحظت فى مقالى الاول وليس بمتعثر) الا تعلمون يا دكتور ان (الدا) فى كلام الامير جمع لديد وفى لسان العرب ورجل شديد لديد والالد الخصم الجدل الشحيح الذى لا يزيغ الى الحق اه

ومن المعلوم أن افعلاء (الدا) بكسر ثالثه (هو البناء السادس عشر من ابنية جمع التكسير) وجاء فى التصريح ما نصه (البناء السادس عشر افعلاء بكسر ثالثه وهو نائب عن فعلاء فى المضعف كشديد واشداء وعزيز واعزاء وفى

المعتل اللام كولى اولياء وغنى واغنياء وشذ افعلاء فى غير المضعف والمعتل نحو نصيب وانصباء وصديق واصدقاء الخ اهـ فحضرتكم ترون أن الداء ليس بمفرد وانه جمع لديد وعلاوة على ذلك فانه جار على اللغة المطردة الفصيحة فكيف نحاسب رجلا بريئا حافظ على قواعد لغتنا ؟ وكيف ننكر عليه سلوك الجادة ؟ وكيف لنا أن ننسف ما بناه ونحطمه ظلما واعتباطا لا لعلة ؟ ومعاذ الله أن ننسب الدكتور الى هذا القصد ولكننا نطلب جوابه عن هذه الظلامة التى أنزلها بأمير الشعراء والصقها ببيانه والحقها به كما الحقت واو الهجاء ظلما بعمرو ..

ويذهب الوهم بحضرة الدكتور الى التعليق على بيت أمير الشعراء

فلتهنا الازواج ما اقترنت بربات الحجول

فيقول : واظنه أراد (ربات الحجال) فالحجال ج حجلة وهى قبة تضرب للنساء لها ازرار تشد عليهن كما جاء فى احدى خطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب (يأأشباه الرجال ولا رجال حلوم الاطفال وعقول ربات الحجال) أما الحجول فشىء غير هذا فهو جمع الحجل بكسر الحاء او فتحها وهو«الخلخال» نعم الحجول خلاخيل النساء وهو مراد الشاعر وفى بيئتنا الكثير من هذا الحلى الذى تعتز به البعض من نسائنا الى اليوم . والشاعر الموهوب الملهم هو شاعر البيئة قبل كل شىء فالبيئة او الاقليمية لها أثرها دوما فى بيان الشاعر وكل شعر لا أثر للبيئة فيه فانا نعد الشاعر فيه معزولا عن البيئة التى يعيش فيها . وما زالت ولا تزال البيئة مهبط وحى الشاعر والهامه .

ويقول الدكتور فى بيت أمير الشعراء

هذا على يغار وذا على يغير

ما نصه :

لندرك هذه العناية المفضوحة فى الغيرة والاغارة وهذا التجانس لم يتهيأ عفوا ومن تصفح شعر أمير الشعراء يتحقق أنه لا يحفل بالمحسنات اللفظية ولا يحرص عليها واذا جادت قريحته بهذا البيت عفوا ـ فاى عيب فى ذلك ؟ والاستعمال حسن والمعنى طيب ومقبول وفى الكتاب العزيز ما يشبه هذا قال جل شأنه :

«قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون) وفى

الآية الكريمة تعدية الفعل (بعلى) عوضا عن (عن) لتضمين معنى النصرة : والعرب تتوسع فى هذه الحروف فتقيم على مقام عن وما انكره الدكتور فى قوله (لو بت تسألنى على احوالها وكأن الشاعر لا يعرف السؤال عن احوالها (لا) على أحوالها) غير متجه وغير صحيح وقد قا لابن جنى فى الخصائص ـ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع الآخر ۰ وبالتالى فان الوقت ضيق الان عن استيعاب البحث ولعل نقد الدكتور كله من هذا القبيل ويتسم بهذا الميسم ويدور حول هذا المحور وهو زيف كله : وعند صليل الزيف يصدق الابتل ، فلنكتف بهذا التعقيب الموجز والدفعة الاولى على الحساب ۰۰ تاركين الحديث عن بيان أمير الشعراء للدراسة المستقلة الآتية وان غدا لناظرة قريب

محمد الهادى العامرى

أخطــــــــاء

الســامــرائي والعــامــري...

بقلم : نور الدين صمود

يؤسفني أن يعتقد كثير من المثقفين أن فلانا أو فلانا أشعر الناس او أمير الشعراء وأن يعتمدوا فى تلك الاحكام أسبابا أبعد ما تكون عن الشعر والشاعرية. فقد كنت اعرف أستاذا يؤكد لتلاميذه أن أعظم شاعر تونسي هو محمود قابادو وكان يعد من بين أسباب شاعريته التي لا تضاهى أنه كان أولا مفتى الديار التونسية وثانيا أن شعره لا يمكن أن يفهم الا اذا استعنا بالقواميس الكبرى كلسان العرب وغيره ...

أمن الشاعرية أن يكون الانسان مفتيا وأن تكون لغته معقدة جامدة لا تعيش على ألسنة الناس بل مدفونة فى بطون القواميس ؟(1)

وكذلك ظل كثير من الناس يعتقدون فى تونس أن شيخ الادباء محمد العربى الكبادى شاعر كبير لمجرد أنه قد قرأ الاغانى والامالى والعقد الفريد والبيان والتبيين وديوان الحماسة وغيرها من أمهات الكتب الادبية أكثر من مرة .. وانه يحفظ آلاف الابيات من الشعر العربى القديم حتى جاز لنا أن نحرف فى شأنه بيت ابن الرومى المشهور :

وانما اولادنا حولنا — اكبادنا تمشى على الارض

فنقول :

وانما استاذنا بيننا — مكتبة تمشى على الارض

فقد يحفظ الانسان آلاف الابيات ولا يكون شاعرا وقد لا يحفظ الا القليل ويكون شاعرا مبدعا .

وكذلك الشأن مع (أمير الشعراء محمد الشاذلى خزندار فهو فى نظر كثير من الادباء التونسيين شاعر كبير لاسباب أبعد ما تكون عن الشعر والشاعرية.

(1) لا اريد أن أنفى الشاعرية عن قابادو بهذه الكلمة

فهذا معجب بكثرة شعره ويرى أن هذه الكثرة دليل على قوة شاعريته فيقول فى حفلة تابينه :

ديوانه المطبوع جزء عاشر   من شعره المخطوط فى الكراس

ألا يعلم هؤلاء أن كثيرا من الشعراء ـفى الآداب العالمية ـ قد اشتهروا بقصائد قلائل أو قصيدة واحدة لجودتها الفنية وأن كثيرا من هؤلاء المجيدين قد ماتوا فى سن الشباب دون أن يخلفوا لنا الا قصائد قلائل ...؟

وكذلك عد كثير من الادباء التونسيين خزندار شاعرا كبيرا لانه طرق مواضيع اجتماعية ووطنية .. او مواضيع أخرى قريبة من قلوب بعض الناس وان لم يحالفه التوفيق فى صوغها فهم يتجاهلون أو يجهلون أن الشاعرية كامنة فى الشكل الجيد الذى تقدم فيه المعانى مهما كان الموضوع لا فى الموضوع الذى تميل اليه عواطفنا مهما كان الشكل رديئا ، فقد يصف (هذا) الشاعر سنونوة حائرة أو نحلة هائمة أو فراشة حائمة فيبدع ويجيد بينما يصف (ذاك) مأساة فلسطين أو حرب الجزائر أو معركة بور سعيد فياتى وصفه باردا رديئا . واذن فالشاعرية فى اتقان الادوات وفى القدرة على تحريك القلوب ببراعة الفن لا بتأثير الموضوع فى حد ذاته ، والا فما الفرق بين شاعر وآخر عندما يتناولان موضوعا واحدا ؟

الشاعرية ليست محصورة ولا موقوفة على الذين كرسوا شعرهم للمواضيع القومية والوطنية .. ولا الذين ظلوا بمعزل عن هذه المواضيع غير شعراء .. فالموضوع فى نظر الفن أبسط عناصر القصيد ..

وبعد هذا فهل كان أمير الشعراء خزندار من المجيدين لصناعة الشعر ؟ بل هل كان شاعرا موهوبا يملك تلك النفحة الفنية الشعرية التى يسكبها الشاعر على مواضيعه فاذا بشعره يهز سامعه أو قارئه كما يهز السلك المكهرب من يلمسه ؟

أما أنا فاشهد انى لمست ذلك السلك غير ما مرة فوجدت انه بارد لا حرارة فيه ، تعوزه الروح والحياة ووجدت أن أبياته مجرد نظم لا شاعرية فيها بل قد يصل هذا النظم الى درجة الاسفاف .

وقد حدثنى الشاعرجلالالدين النقاش منذسنوات قال: عندما ذهبالمرحوم عبد العزيز الثعالبى الى العراق حمل معه ديوان خزندار وقدمه الى الشاعر

معروف الرصافى فكان يقرؤه باشمئزاز وينعتــه بنعت لا أجــرأ على ذكره لسماجته وينكر أن يكون صاحب هذا الشعر أمير شعراء ٠٠٠

واذن فانا موافق للسيد الدكتور ابراهيم السامرائى فيما ذهب اليه فى شأن شاعرية خزندار ولكنى أريد أن أنبهه الى أخطاء وقع فيها عند ما كتب موضوعيه عن خزندار الاول بمجلة الاديب العراقى العددان 5 و 6 ـ 1962 والثانى بمجلة الفكر العدد 9 ـ 1963 وقد كفانى مؤونة الرد على بعض ما جاء فى الاديب العراقى السيد الهادى العامرى وسأرد عما جاء فى مجلة الفكر من اخطاء الدكتور السامرائى :

يرى الدكتور أن الشاعر خزندار قد وقع فى خطأ فى هذا البيت :

ادأب عليه وطالب به الخصوم الالدا

فيقول : (فالالد صفة لمفرد وهــو الخصم أما الخصــوم فينبغى أن تــوصف بالجمع فكان يلزم أن يقول : (الخصوم اللد) جريا على قوله تعالى : (وتنذر به قوما لدا) فاللد بضم اللام جمع الالد) والحق أن الدكتور قد تجنى على الشاعر أو لم ينقده نقدا صحيحا ٠٠ فالشاعر لم يقل (الخصوم الالد) بفتح الــلام أى بصيغة المفرد فهذا لا يجوز لابسط تلميذ ان يسمح به لنفسه بل قال : (الالدا) بكسر اللام بصيغة الجمع ولكنه حذف الهمزة وهذا أمر معروف عند العروضيين بجواز (قصر الممدود) فيستطيع الشاعر أن يقول (السما) بدل (السماء) و (الاعدا) بدل (الاعداء) وهكــذا ٠٠٠ وانما الشئ الذى يؤاخــذ عليه الشاعر هو انه استعمل جمعا للدود معروف وهــو (الالداء) المذكورة فى ذلك البيت ، ويبدو أنه قاسه على أشداء ، وكان يمكن أن يقــول : (العــدو الالدا) فتستقيم اللغة والوزن معا ٠

وكذلك نرى السيد الدكتور يتشدد مع الشاعر فى قوله :

فلتهنأ الازواج ما اقترنـــــــــت بربات الحجول (١)

ويقول : (وأظنه أراد ربات الحجال) فالحجال جمع حجلة وهى قبة تضرب للنساء لها أزرار تشد عليهن كما جاء فى احــدى خطب على بن ابى طــالب : يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الاطفال ، عقول ربات الحجال) اما الحجول فشىء غير هذا فهو جمع الحجل بكسر الحاء او فتحها وهــو (الخلخــال) فما

(١) كان على الشاعر أن يقول : فليهنأ الازواج ما اقترنوا بربات الحجول

يضير الشاعر اذا قال : (ربات الحجول) أى الخلاخيل ؟ أمن الضرورى أن يقول : (ربات الحجال) أى القباب التى تضرب للنساء لها أزرار تشد عليهن؟ فربات الحجال وربات الحجول كلهن نساء ٠

وكذلك ألوم الدكتور على رمى الشاعر بجهل العروض واتهامه بالغلط العروضى فى مجموعة من الابيات ، ويقطع الدكتور عجز هذا البيت تقطيعا عروضيا ليبرهن على هذه الاخطاء العروضية الكثيرة :

وحسبك بالشعور اذا ترقى (واجرى سلسبيله فى المجارى)

ويتهم الشاعر بالخطأ بينما هو المخطىء وهذا ليس من الدقة العلمية فى شىء واليك تقطيعه لعجز ذلك البيت :

واجرى سل ـسبيلهفل ـ مجارى

مفاعلتـــن مفاعلتـــن ـ فعول (كذا)

ويقول ان ضمة الهاء فى سلسبيله زائدة على الوزن فالبيت من (الوافر) والوزن يقتضى ـ فى زعم الدكتور ـ حذف ضمة الهاء او اسكان الهاء ثم يقول : (ومثل هذا التجاوز قوله : (وكم أجرى ببحره من جوار) وقوله : (وكم رضعت لبانه من شعوب) وقوله : (ودونك من دنانه كأس راح) ففى هذه الابيات زيادة فى الوزن اقتضاها (كذا) حركة الهاء فى (بحره) و (لبانه) و (دنانه) وأنا أرجو من السيد الدكتور أن يراجع وزن هذه الاشطر ليتأكد من أنها موزونة لا خلل فيها فهى من بحر الوافر كما قال وتفاعليه :

مفاعلتن ـ مفاعلتن ـ فعولن

بتحريك (اللام) فى مفاعلتن وانما تسكينها مجرد جواز سماه العروضيون زحافا فلو استمر هذا التسكين فى كامل القصيدة لاشتبهت بالهزج او لصارت هزجا خصوصا فى مجزوء الوافر الذى يجب أن توجد فيه تفعيلة واحدة على الاقل متحركة اللام كيلا تنقلب الى هزج حتما ٠٠ ولو أردت التطويل والجرى على أسلوب الدكتور فى الترسل والاستطراد لقلت له : هذا الجواز يشبه الى حد بعيد جواز تسكين التاء متفاعلن (تفعيلة بحر الكامل) ولكن اذا استمر هذا التسكين فى كامل تفعيلات البيت ظنه القارىء رجزا لا كاملا ، ألستم معى فى أن هذا البيت لابن خفاجة من بحر الرجز :

لله نهر سال فى بطحاء اشهى ورودا من لمى الحسناء

مستفعلن مستفعلن مستفعل   مستفعلن مستفعلن مستفعل

ولكنكم تتأكدون انه من بحر الكامل متى قرأتم البيت التالى :

متعطف مثل السوار كانه   والماء يكنفه مجر سماء

متفاعلن متفاعلن متفاعلن   متفاعلن متفاعلن متفاعلن

أجل اذا قرأتم هذا البيت فانكم ستجزمون بان البيت الاول من الكامل ولكن سكنت جميع تاءاته فشابه الرجز وأوهمنا أن القصيدة على بحر الرجز ...

وأعود الآن لازن او لاقطع نفس ذلك العجز لابين صحته :

واجرى سد ـ سبيلهفد ـ مجارى

مفاعلتن ـ مفاعلتن ـ فعولن

فالتفعيلة الاولى مسكنة اللام جوازا والثانية محركة اللام على الاصل والتفعيلة الاخيرة تنتهى بساكن كما ترى .

والسبب الذى أوقع الدكتور فى الخطأ هو أنه أشبع ضمة الهاء ولو قرأها ضمة بسيطة لما وقع فى هذا الغلط .

ويستطيع الدكتور بعد هذا أن يقرأ كل تلك الاشطر التى أشار اليها ـ وزعم أنها غالطة ـ بتخفيف حركة الهاء التى قال انها زائدة وسيرى أن البيت موزون لا خلل فيه .

وليعذرنى الدكتور على هذا الاستطراد فى شرح خطئه حول هذه الاشطر فقد عودنا على هذا الاسلوب فى كتاباته .. وأحب أن أستغل هذه المناسبة لانبه الدكتور الى أن الاستطراد اسلوب عتيق عودنا به الجاحظ وأبو الفرج .. وغيرهما من أدبائنا القدماء .. ورغم ذلك فالدكتور متأثر بهذا الاسلوب ايما تأثر معجب به أيما اعجاب فلا يكاد يخلو منه موضوع من موضوعاته التى قرأتها له .. وحسبك دليلا على ذلك أن تقرأ الموضوع الذى كتبه السامرائى عن خزندار فى الاديب العراقى لترى حديثه عن امارة الشعر وامارة التجارة وامارة المتشردين أيضا..ثم يصل الىمحمدالشاذلىخزندار فيحدثنا عن (محمد) و(امحمد) و (سى محمد) وشيوع اسم محمد بتونس وأسبابه ... ثم يحدثنا عن الشاذلى والشيخ الشاذلى والشاذلية والصوفية بتونس ... ثم عن خزندار وأصل هذا الاسم وكل هذا لا صلة له (بامارة الشعر وأمير الشعراء) .

وأعود فاسأل الدكتور وأسأل المطلعين على علم الادب العربى القديم :

أليس هذا الاسلوب قديما فيه (عناية مفضوحة) بالترسل والاسترسال ؟ وان الكاتب المعاصر اذا أراد أن يذكر تلك الاشياء فعليه أن يثبتها فى الحاشية مشيرا اليها برقم أو أرقام متسلسلة ؟

اذا كان هذا الاسلوب قديما وقد تشبثت به فلماذا تلوم خزندار على ولوعه بالتجانس والجناس وتشنع عليه تقليده للقدماء فى قوله :

هـــذا على يغار وذا عـلى يغيـــر

حيث جنس بين (الغيرة) و (الاغارة) ؟

وانبه الدكتور الى أن الشاعر لم يقع فى خطأ عندما قال :

هو اليوم فى (الدوح) خشف وديع وفى الغد ليث هصور عتيـد

اذ ليس (الدوح) فى هذا البيت الشجر الضخم كما اعتقد الدكتور « غير ملوم» اذ ظنه عربيا فصيحا والحق أنه لفظ عامى تونسى معناه (المهد) وأنا الوم الشاعر على عدم وضع كلمة المهد العربية الفصيحة عوض (الدوح) العامية . إذ المهد على وزن الدوح (I)

ثم يعلق الناقد على هذين البيتين :

شقيـــق (عيـــاض) محمـــده وطالـــع يمن وعيـــش رغيـد
و (هـــاديه) للخيـــر والـــده لـــه أمـل فى الصبى وطيـــد

بقوله : (ألا ترى أن فى صدر(ى) هذين البيتين وفى عجز البيت الثانى شيئا لا ينسجم مع الوزن ، ومثل الخروج عن الوزن قد وقع فى أبيات عدة من القصيدة نفسها) ؟

وأنا لا أرى فى هذين البيتين أى غلط عروضى وهـذا تقطيـع الاشطـر المشار اليها :

شقيق ـ عياض ـ محمم ـ د هو (بالاشباع)

فعول ـ فعولن ـ فعول ـ فعل (فعو)

(I) هذا اللفظ يؤكد لى أن الشاعر لم يعر للقصيـدة اهتماما ولـم يكـن يظن ان السيد العامرى سيحتج بها ويجعلها فى عداد روائع الشعر .

وهادئ ـ هللخي ـ روالـ ـ د هو (بالاشباح)

فعول ـ فعولن ـ فعول ـ فعل (فعو)

لهوأ ـ ملن فصـ ـ صببيى ـ وطيد

فعـول ـ فعـولن ـ فعول ـ فعـول

فالقصيدة على بحر المتقارب وتفعيلاته (فعـولن فعولـن فعولن فعـولن) ويجوز في جمع تفعيلاته حذف الخامس الساكن وهـو النـون وهـذا يسمى بالزحاف لوقوعه في الحشو ولا يلتزمه الشاعر وأما حـذف السبب الخفيف من العروض فذلك أمر معروف في علم العروض شرط أن يلتزمه الشاعر في كامل القصيدة في جميع البحور الا في بحر المتقارب :

فهذا ايليا أبو ماضي يقول :

أنا قطرة في الضحى لمعت قليلا عـلى ضفـة المشرع (I)٠
سيأتي عليهـا المسـاء فتغـدو كـأن لـم ترقرق ولم تلمـع

فصدر البيت الاول على هذا الوزن : فعولن فعولن فعولن فعل (أي فعو)

وصدر البيت الثاني على هذا الوزن : فعولن فعولن فعولن فعولن

فحذف من البيت الاول سببا خفيفا ولم يلتزم الشـاعر ذلـك في البيت التـــالي ٠

رأيت الناقد السامرائي يشكل صدر البيت الاول من هذا المقطع بالفتح هكـــذا :

التـــونسي بنـــي أضحـى بحقي ينـــادي
لكنمـــا ذو الغـــي رآه اعـــدى الاعـــادي
حيث اغتـــدى في الحـي يقـــول هـذي بـلادي
وحـــق هـــذا الابي ....

والصحيح أن تكـون الياء ساكنـة لان الابيـات التاليـة مجرورة فوجب تسكينها لتكون متشابهة في السكون ٠

(I) الخمائل ص I76

ورغم أن الدكتور السامرائى كان مخطئا فى كثير من نقده الشكلى فان هذا لا يزيد فى شاعرية خزندار فقد سبق لى أن وضحت رأيى فى الشعر والشاعرية وفى خزندار فى اول هذا الموضوع ولكنى أريد فى هذه الكلمة الاخيرة أن أقول للدكتور السامرائى ان الشاعرية ليست فى اتقان الادوات وتجنب الاخطاء فقط والا فما قول الدكتور فى أخطاء أبى القاسم الشابى الكثيرة (!) فالدكتور يجعل الشابى أشعر شاعر فى تونس (رغم أخطائه) ، ويركز نفى الشاعرية عن خزندار لكثرة أخطائه (وان كنت قد بينت انه مخطىء فى تخطئته للشاعر) ·

فأنا أقر بشاعرية الشابى ـ رغم أخطائه ومزالقه الكثيرة ـ واعتقد أن له خيالا خلاقا محلقا مجنحا نادر المثال ··· وأقر أيضا بقصور خيال خزندار وضعف شاعريته بالاضافة الى أخطائه وعدم عنايته بالابداع والاتقان أو لعله حاول الابداع فلم يصل ··· وحسبك دليلا على صحة هذا الرأى أن شعر الشابى شائع على ألسنة كثير من المثقفين وغير المثقفين وهو شاعر مات فى سن الشباب لم يعترف بشاعريته أحد فى حياته · وان شعر خزندار لا يحفظ منه أحد من المثقفين بيتا واحدا فضلا عن قصيد كامل ، وحسبك هذا دليلا على برودة شعره وقصوره عن بلوغ مرتبة الجودة فى نظمه ·

ومات خزندار ومات معه شعره ولم يردده أحد من المثقفين أو غير المثقفين وهذا دليل أكيد على أن امارة الشعر التى نسبت الى خزندار انما هى امارة زائفة لا يستحقها خزندار عن هذا الشعر ··

وأخيرا يؤسفنى ـ حقا ـ أن يتخذ السيد العامرى من تلك المنظومة الهزيلة برهانا على شاعرية خزندار الفذة فان لخزندار عشرات القصائد تفوق تلك المنظومة التى تعد من شعر المناسبات، واذا كان السيد العامرى يريد ألا يغفل لخزندار شيئا من شعره فليكن ذلك فى غير هذه المناسبة وليقدمها فى تواضع ملتمسا لها الاعذار لتقبل كأثر للفقيد لا لتعد فى عداد الروائع فهى من النظم البارد الذى لم يصل فيه صاحبه الى المرتبة المتوسطة متبعا فيه طريقة عهود الانحطاط فى التاريخ للمناسبة ، فالقصيدة رغم انى بينت ـ فيما سبق ـ أنها صحيحة الوزن ، لا تقف أمام النقد ، ويبدو ان الشاعر خزندار كان يجامل اصدقاءه بامثال هذه المنظومات فاذا بهم يتخذونها نماذج للابداع الفنى فيسيؤون للشاعر من حيث يريدون الاحسان اليه ·

(I) أرجو أن تتاح لى الفرصة لانبه الى تلك الاخطاء فى مناسبة أخرى ·

(ويؤكدون الذم بما يشبه المدح) ـ كما يقول البلاغيـون ـ ويسيـؤون الى الادب والشعر والنقد معا، ويريدون أن يجاملوا أصدقاءهم من الادباء متجاهلين النزاهة والمنهجية فى البحث ظانين أن آراءهم ستفرض على الناس دون برهان صحيح أو حجة مؤيدة ، ناسين أن النقد المنهجى سيغـربل الادب وسيقيـم الانتاج وسيعطى لكل ذى حق حقه ولن يبخس الناس أشياءهم كما أنه لن يكيل لهم المدائح التى لا يستحقونها • وقد آن لنا أن ننظر الى نتاج أدبائنا بمنظار الناقد النزيه الذى لا يطفف ولا يوفى ••• وأرجو ألا أكون قد أثرت حفيظة المتشيعين لامير الشعراء ، وقد أعود اليه والى أمثاله بالدرس والنقد لابين قيمتهم الادبية •

نور الدين صمود

الفكر

تصدر شهريا بتونس

مديرها المسؤول : محمد مزالى

رئيس التحرير : البشير بن سلامة

المراسلات : صندوق البريد 556

الحساب الجارى بالبريد 33769

تونس

بريد القراء

قلـــــوب حائـــــرة

بقلم : البشير التلمودى

***

الجبال تفنى .. والممالك تتحطم .. ولكن الحب يتحمل كل شىء ..

هذه الحقيقة الوحيدة التى عليها أعمل ، والحقيقة الوحيدة التى لن تؤخذ منى .. ولكن علمت بعد ذلك أن الحب عاصفة من الجنون ..

***

انه لا تهمنى الحياة فى الاكواخ ، بقدر ما تهمنى الحياة بجانب فتى أحلامى طوال الايام الباقية من حياتى ..

وحتى أكون سعيدة يكفى أن أشد على يـد من أحب ، وأشعر وانا أضـع رأسى على صدره بالدفء والحنان ..

***

كانت اللحظات التى كنت اقضيها بجانبه تنتهى بسرعة عجيبة ، وعندما أتجول معه ، كل خطوة تحملنى الى عالم النشوة واللذة ..

ـ اراك قد تعبت .. فهل تريدين أن تستريحى قليلا يا عزيزتى ؟ ..

ـ أستطيع معك أن أطوف بالعالم مرتين ، فلا أسأم ولا أتعب ..

ولم أطلب منه مرة أن يقبلنى ، مع اننى كنت اتمنى على القـدر أن تلمس يوما شفتاى شفتيه . وحين يجود على القدر بقبلـة من حبيبى كنت احتفظ بطعمها طويلا بعد ذهابه وحين اعود الى بيتى وارتمى على الفراش وأغرق فى عالم النشوة والاحلام ...

ـ سيأتى اليوم الذى فيه نكون لبعضنا الى الابد ولن نفترق ..

*

وفى ذلك اليوم ، كنت كالعادة مستلقية على الفراش اطالع مجلة نسائية . فانتفضت مذعورة على وقع اقدام اختى هدى تقتحم غرفتى ..

ـ هذه أنت يا هدى ؟ ..

ـ انهضى .... انهضى ياعزيزتى .... وتعالى .... واسمعى ....

ـ ماذا حدث ؟ ..

ـ اليوم السعيد .. انهضى ياعزيزتى .. انهضى ..

ـ أنا لم أفهم شيئا ... أخبرينى ..

ـ فؤاد .. فؤاد طلب منى الزواج يا حبيبتى .. كنت معه الآن ، وقد اخبرنى بنفسه اننى مسرورة .. مسرورة جدا ..

لست ادرى ان كنت وقتذاك مسرورة بسعادة اختى هدى أم لا ؟

فقد شعرت بنفسى أقول لها فى شىء من اللاوعى :

ـ اوه .. هدى .... هدى .... حبيبتى .... مبروك .... انى اهنئك من صميم قلبى .... حبيبتى هدى .... تعالى اقبلك .... تعالى ...

وقبلتها .. ولم اشعر بالدموع التى كانت تملأ عينى ..

ـ آه .. لو يطلب منى أنا أيضا الزواج ! ..

قلت ذلك والتفت الى هدى أسألها فى شىء من الفضول :

ـ والزواج .. متى سيكون زواجكما ؟ ..

ـ قريبا .... قريبا جدا .... أوه .... كونى مطمئنة ....أنا لن أسمح له ابدا بالتراخى خصوصا فى مثل هاته المواضيع ، زيدى على ذلك ان من الضرورى اشتراء لوازم الزواج فى اقرب وقت ممكن ...

وهمست وانا انظر الى اللاشىء :

ـ فى .... أقرب .... وقت .... ممكن ؟؟..

ـ وانت ايضا يا نادية ، ستتزوجين فى نفس اليوم الذى سأتزوج فيه ، أليس كذلك ؟؟

ـ أنا ؟؟ ولكن ....

ـ لكن ماذا ؟...

ـ ان حامدا لا يستطيع تسديد كل ما سأطلبه للعرس ، سيكون زواجنا بسيطا وساذجا للغاية ...

ـ .... ؟ .... أنا سأغتنم الفرصة كي أطلب من فؤاد كل ما اشتهى ....

قالت ذلك ، وبدأت تردد في دلال لحن اغنية فرنسية جميلة ..

« سأظل انتظرك في الليلة الموعودة ....

وسيصمت الكون ....

ويغنى الضياء ...

حين تاتى يا حبيبى

***

كنت أعلم حقيقة أذواق اختى هدى ، ولكن تعجبت لترفها المبالغ فيه ، حين دخلت على ذات مساء محملة بالهدايا الثمينة الفاخرة ...

ـ أوه .... هدى .... أنت تبالغين ....

ـ انت لم ترى شيئا بعد .... تعالى .... تعالى يا حبيبتى وانظرى ما اشتراه لى عصفورى الجميل ..

ثم صمتت قليلا ورفعت رأسها وقالت في غبطة :

ـ ثم ان هذا وحده لا يكفى .... اننى انتظر « روب دى شمبر » وحذاء وفستانا من باريس .... لاننى لم اجد كل هذا هنا .. سيكون زفافنا خارقا للعادة ......

وأخذت تغنى في مرح الطفولة اغنيتها الفرنسية المحبوبة .

***

وبعد ايام ، اصطحبت أختى وخطيبها للتفتيش عن شقة ، تكون عش زواجهما القريب ... قال فؤاد ـ خطيب اختى ـ حين دخلنا شقة فى عمارة بالحى الفرنسى :

ـ هذه تعجبنى يا عزيزتى .. ثم ان أجرة الكراء ليست كبيرة ..

وسمعت أختى تقول له :

ـ ولكن يا عزيزى ٠٠ فى وسعنا تفتيش غيرها ، فلربما وجدنا أحسن من هذه .... هيا لنواصل التفتيش ....

وفعلا ، سمع ما قالته له أختى ، ففتش ٠٠ وفتش ٠٠ الى أن وقع اختيارهما على شقة آية فى الجمال والاناقة ٠٠

وكأن فؤادا لم يكن راضيا لهذا الاختيار لغلاء الثمن ، فالتفت الى اختى وقال لها هامسا :

ـ الشقة جميلة للغاية ولكن ٠٠ ولكن يا عزيزتى ٠٠ ألا ترين ان الاولى تكفينا وتغنينا عن كل هذا البذخ ؟ ٠٠ زيدى على ذلك ، اننى لست مليونيرا ٠٠ انت تعرفين ذلك ٠٠

فقاطعته قائلة فى هزل تحاول أن تخفى به لهجة الجد :

ـ ستكون مليونيرا فى يوم ما ٠٠ ثقتى فيك كبيرة وأملى فيك عظيم ٠٠

**

لقد دوختنى هدى بتصرفاتها ازاء خطيبها ، فلم استطع أن امنع نفسى فى اللحظة التى اجتمعت فيها مع خطيبى حامد ، من البكاء على صدره الدافىء فى صمت ٠٠

وبقيت كذلك لحظات ، فسمعته يقول فى همس وأصابعه تداعب خصلات شعرى :

ـ نادية .... حبيبتى .... أراك تبكين ، ماذا حدث ؟ ..

ـ ...... (وبقيت أبكى فى صمت ....) ....

فاخرج من جيبه منديلا وبدأ يمسح فى رفق وحنان قطرات الدموع التى انحدرت على وجنتى ٠٠ وهو يردد :

ـ اخبرينى ٠٠ ماذا حدث ؟ ٠٠

فرفعت اليه رأسى وقلت هامسة :

ـ اختى ٠٠ ستتزوج ٠٠

ـ متى ؟

ـ بعد اسبوع ..

ـ اذن علام البكاء ؟ سنتزوج نحن أيضا و ..

ـ نتزوج ؟ ..

ـ نعـــم .

ـ متى ؟

ـ قريبا .. وسيكون يا عزيزتى زواجا مرموقا .. اعدك بذلك ....

قال ذلك ، وقبلنى وافترقنا .

*
**

كان الروب الذى اشترته هدى لزفافها ، محط اعجاب كل من رآه ..

ـ انه فستان ملكة ..

ـ كل ذلك لان ثمنه كان طائـلا . انه يسـاوى ثمنه أليس كذلك ؟ لقد تمنيت دائما أن أجد ما احسن .. ولكن ..

ثم صمتت قليلا وقد غطت وجهها سحابة من الوجوم والقلق ، وقالت :

ـ أحيانا .. أتساءل فيما اذا كانت كل هاته الاشياء ضرورية لحياتى ؟

ـ لماذا تقولين هذا ؟ ان فؤادا يحبك كثيرا ..

ـ ....

ولكنها لم تتكلم بل بقيت تبكى فى صمت ..

لم اكن أظن أن ما حدث فى الليلة القادمة سيحدث لها . فقد رجعت ليلتئذ من انسنما فى ساعة متاخرة من الليل فوجدتها تجمع ثيابها ..

ـ هدى .. ماذا حدث ؟ وماذا تفعلين ؟ أين انت ذاهبة ؟..

ـ سأذهب الى أبعد مكان فى العالم حتى لا ألاقيه ثانية .

ـ ولكن .. لماذا ؟ اخبرينى . أنا لم أفهم شيئا ..

ـ لقد تغير .. تغير كثيرا هاته الايام الاخيرة .. وأصبح باردا .... أصبح يكرهنى ويعاملنى بقسوة غريبة ..

ثم صمتت قليلا تهدىء من روعها وقالت وقد خنقتها العبرة :

ـ .... وذات مساء وجدته .... وجدته مع امرأة اخرى ٠٠

قالت ذلك وأخذت تبكى على صدرى كالطفل الضائع ٠

ـ مسكينة أنت يا هدى ٠٠ آه ٠٠ لو استطيع أن أقدم لك يد المعونة ..

ـ لقد انتهى ٠ سأبتعد عنه وسأنساه ٠٠ سأنساه ٠٠

واجهشت بالبكاء ....

ومرت لحظات ٠٠

وفى سكون رفعت رأسها ، ونظرت الى فى حنان ، والدموع تملأ عينيها ، ثم فتحت خزانتها فى صمت قائلة :

ـ سأهديك يا حبيبتى فستانى الذى لن ألبسه أبدا ٠٠ وأتمنى أن يحمل لك بين طياته سعادة أكثر من التى حملها الى ٠٠

قالت ذلك ، واغلقت الخزانة وخرجت ٠٠ فى قلبها أحزان وفى عينيها دمـــوع ٠٠

ومرت اللحظات ....

أخذت الفستان الجميل ٠٠

وضممته ٠٠ ضممته بكل قواى الى صدرى ٠٠

ـ لم أحلم قط أن أملك مثل هذا الفستان الرائع ٠٠

ولبسته فى سرعة جنونية ٠٠ وأتيت الى المرآة لانظر عـن قرب جمـالى الفاتن ٠٠

ـ سيكون زواجى حقيقيا ٠٠ هذا فوق ما كنت أتمناه ٠٠

ولكن ......

الانفاق الطائل فى الزواج يخبىء أحيانا عواطف مرهفة ٠٠

أجل ٠ اذا كانت هدى تريد أن تبهر فؤادا بجمالها ، فيعنى انها كانت غير واثقة من نفسها ٠ أما انا ٠٠ فقد كنت واثقة من حامد ٠

فقد كان يضمنى الى صدره بقوة الحب وحرارتـه ويقبلنى فى جنـون وفى حرقة ...

ولكن ٠٠ هدى ايضا كانت تشعر نفس الشيء حين كانت تقبل خطيبها وتضمه الى صدرها فى عنف ٠٠ ومع ذلك ٠٠ فقدته ٠

كذلك يمكن أن نكذب بقبلة أيضا ، مثلما نكذب بكلمة .... ثم ان فـؤادا قبل شفتى هدى عدة مرات ٠٠٠

يا الهى .... ان هاته الهـواجس تؤلمنى .... تفتت لحمى .... وتسبب لى اوجاعا فى عروقى .... لا .... لا .... أنا لا أملك حجة قاطعة على حـامد من انه ينوى تركى ويمتنع عن الزواج منى ٠ ولكن أيضا ٠٠ أنا لا أملك برهانا على صدقه وحسن طويته ....

لن نعرف الحقيقة الدفينة !٠٠

اننى أتساءل : لماذا هجر فؤاد أختى هدى ؟؟

**

فى كل مرة افتح فيها خزانتى ، أقف اللحظات الطوال أحملق فى دهشة عظيمة ، الروب الابيض الذى اهدتـه لى اختى هدى ٠ وكنت أسـأل نفسى أحيـــانا :

ـ أترى الروب يسعدنى أم يبكينى ؟٠٠

ثم أصمت قليلا وآخذ الروب بين يدى وأضمه وأقبله فى حب جارف ٠٠

ـ لا .... لا .... سيسعدنى .... لن أبكى أبـدا ٠ ان هـدى حين فقدت فؤادا ، كانت تطلب منه فوق طاقته ، أما أنا ٠٠

**

وحين اجتمعت بحامد بعد يومين فى مقهى الكوليزى ، سمعته يقول لى :

ـ فى المرة الاولى التى اجتمعنا فيها ، كنت أظن انك أجمل فتاة فى العالم

ـ والآن ٠٠ أنت لا تفكر فى هذا ٠٠ أليس كذلك ؟

وثار ثائرى ٠٠

وخرجت معه من المقهى وفى احشائى نار تضطرم ٠

وحين ارى حامدا وهو ينظر الى بعض النساء فى الشارع ، كنت أسألـه على الفور :

ـ انت تعرف هذه المرأة ؟ من هى ؟ أنت تعرفها من قبل ؟

وفقدت رشدى ٠٠

وكنت فى كل مرة أضرب له موعدا فى التليفون ، أرجع خائبة ، فاضع السماعة وابكى طويلا ٠٠٠ ولكنى لا البث أن آخذ مرة ثانية السماعة فادير قرص التليفون فى جنون ٠٠٠

ـ الو ٠٠ حامد ؟

ـ نعم ٠٠ ماذا حدث ؟

ـ لا .... لا شىء .... ولكن .... قل .... أنت متحقق من أن العمل هـو الذى يمنعك من المجىء والاجتماع بى ؟

ـ لقد قلت لك ذلك منذ لحظات قليلة يا عزيزتى ٠٠

ـ ربما أنت ذاهب الى امرأة أخرى ؟٠٠

ـ كونى مطمئنة ٠٠ سأبقى فى المكتب ولن اخرج مع امرأة أخرى ٠٠ والان الى اللقاء ....

ومرة أخرى ، أضع السماعة وابكى طويلا ٠٠

*

ولما كان الصباح ٠٠ رفعت رأسى من على الوسـادة ، فاذا هى مضمخـة بالدموع ٠٠

ـ لاشك اننى بكيت الليل كله ٠٠

وفجأة رفعت رأسى فاذا باحلامى المزعجـة تتراقص أمـام عينى ، ومزق سمعى صوت حاد كأنه آت من أعماق الارض ، يقول لى فى حقد :

ـ « أنا لا أحبك .... أنا أحب غيـرك .... آه .... لـو لم تكـونى عمياء لرأيتها من زمان ٠٠ »

وسرت فى جسمى قشعريرة من البرد القارس ثلجت قلبى ، فلم استطع حراكا ٠

ـ هذا تحذير ولاشك ٠٠ اليوم ٠٠ سأكتشف سر قلب حامد !

وقابلته فعلا فى مقهى الكوليزى كالعادة ٠

كان فطنا حاد الذكاء لكى يسلم نفسه لى من أول وهلة ٠ فقد حاول ان يلقى كل المسؤولية على عاتقى وحده ، قائلا :

ولكن ، ماذا حدث بيننا يا نادية ؟ لقد تغيرت كثيرا ؟ ولم أفهم لماذا ؟

ولكننى كنت ذكية أيضا فارجعت سهام اللوم نحوه ، وقلت له فى هدوء :

ـ تغيرت ؟ وتقول هذا فى شىء من البراءة حتى تغطى خطأك نحوى ٠٠ أنا أحبك دائما يا حامد هل لك ما تقوله ؟٠٠

ـ طبعا ، لاننى أنا أيضا أحبك ٠٠ ولكن ٠٠ لم تنظرين الى هكذا كما لو كنت مجرما ؟

ـ ....

ـ لو تظنين أننى قمت بشىء سبب لك القلق ٠٠ فاعلمينى به ٠٠

ـ أنا لم أقل أنك فعلت شيئا لا يرضينى ٠٠ انما ٠٠ إنما ستفعله قريبا .... أليس كذلك ؟؟

ـ ولكن ٠٠٠

ـ ارجوك قل الحقيقة يا حامد ٠٠ قل ٠٠

ـ .... ؟؟ ....

ـتكلم ما بالك صامتا ؟ سأقولها بنفسى ٠٠ انك لم تعد تحبنى ٠ هـذه هى الحقيقة ، قل هل وجدت غيرى ؟

ـ ان تمادت علاقتنا على ما هى عليه الآن ٠٠ فاننى ٠٠ سأفارقك يا نادية! لا فائدة فى البدء ......

قال ذلك وتركنى وانصرف ٠

⁂

وعندما عدت الى البيت واستلقيت على الفراش اذرف الدموع والآهات ، شعرت بوحدة تغمر قلبى والمكان ٠٠

فنهضت ٠٠

واتجهت نحو خزانتى ففتحتها ووقفت أمام الروب الابيض ، انظر اليه هامسة فى حقد مكتوم :

ـ ربحت ٠٠ أليس كذلك ؟ لقد كنت تعلم أنك ستوصلنى الى حيث أنا الآن ٠ عند ما ملكتك بدأت فى فقدان حامد ٠٠٠

فجـــأة ....

انفتح باب غرفتى ٠٠٠

فالتفت ....

فاذا اختى هدى ، تبتسم لى فى براءة والى جانبها خطيبها ٠٠

ـ هدى ؟٠٠ فؤاد ؟٠٠

ونسيت من فرط صدمة المفاجأة ما حدث لى ، خصوصا عندما رأيت السرور يشع من وجهيهما ٠ وسمعت هدى تقول فى غبطة جارفة :

ـ لقد تزوجنا يا حبيبتى ٠٠٠

قالت ذلك ، وتقدمت منى تقبلنى وتضمنى الى صدرها فى حنان قائلة :

ـ أوه .... عزيزتى نادية .... لتكونى سعيدة .... لن أحتفل بالروب الابيض خذيه هدية منى ٠٠ المهم انى وجدت فؤادا ٠٠

ثم صمتت قليلا ٠٠ ورجعت تقبلنى من جديد قائلة :

ـ ٠٠ والفضل فى زواجى وسعادتى يرجع أولا وأخيرا الى الروب الابيض

ـ الروب الابيض ؟؟

ـ أجل يا عزيزتى ٠٠ كنا نتشاجر يوما من الايام فى شأن المبالغ الطائلة التى بعثرتها هنا وهناك ٠٠ فاتى الروب لكى يصلح الاوضاع ويرجع المياه الى مجاريها ٠٠

وصمتت قليلا قبل اتمام كلامها :

ـ وفهمت ان المهم هو السعادة ٠ فاسرعت لافتش عن خطيبى ، وها هو بين أحضانى ٠٠ قالت ذلك وانسلت من بين ذراعى لكى تضع رأسها على صدره فى دلال ٠٠

وفهمت ٠٠

فخرجت أبحث عن حامد !

وعندما وجدته وجلست معه فى مقهى الكوليزى ، ظل ساكتا لا يتكلم . فلم استطع أن أمنع نفسى من الاعتذار والبكاء على صدره :

ـ حبيبى .. سامحنى .. كنت خائفة أن أفقدك ، حتى سببت لنفسى مرضا وهميا ....

لم ينبس ببنت شفة .

ودنا منى فى رفق ثم وضع يده فى يدى ...

فرفعت اليه عينى ... لتتلاقى نظراتنا ...

وخفق قلبى فى عنف ..

وبلا وعى سمعته يهمس فى صوت رقيق :

ـ أحبك .

وصمتنا قليلا ، فملت برأسى الصغير على كتفه وهمست حالمة :

ـ هيا بنا ..

فوقف لحظة قبل أن يتبعنى وأخذ يتحسس فى خلوتنا وجهى الناعم ويعبث بخصلات شعرى فى حنان ..

ثم مر النسيم ...

فملت أكثر على صدره كما كنت أفعل من قبل ...

واحسست مرة أخرى برعشة خفيفة تجتاح جسمى ...

ولكننى نسيت نفسى عند ما غرقت مع حامد فى قبلة خجول مضطربة .

*

وحين افقت من « اغماءتى » .. الفيت نفسى بين ذراعيه ..

واختى بين ذراعى خطيبها ...

وزادت فغمرتنى موجة من الخجل ، حين سمعت أمى تزغرد ...

وثلة من الاحباب والاصدقاء يوجهون لنا التهانى ...

البشير التلمودى

أصداء الفكر

◆ بعد موت بشر فارس

قال ابراهيم عبده الخورى فى « الجمهور الجديد البيروتية » ما ملخصه :

منذ اسبوعين هوى نسر من نسور الادب ..

شخصية أدبية فذة افلتت من قيود الادب الضيق ، لتقفز خلف الشطوط حيث للفكرة العميقة الغور قيمة ، واللفظة المنمقة جلال والاسلوب المتين والرصين مكانة ..

شاعر بكى لفراق الاحباب ، وصور الوصال فى لوحات تبقى للاجيال فى عنفوانها ..

بحاثة من الطراز المرموق جال فى مجاهل الحياة العربيـة القديمة ، فاظهر عظمتهـا وكشف عـن سـر بقائهـا .

نقادة من الرعيل المجبب ما حاد عن قوله الحق ، وما كتب ليجرح او يشتم ..

مسرحى أبدع ما ترك للخزانة العربية التى تفتقر الى لون مسرحى يضاهى المسرحية الغربية فى وقفتها المتعالية ورصيدها الخالد .

وطنى حمل معه الولاء لارض الاجداد الى ضفاف النيل ، وراح يتغنى بثلج صنين وارز لبنان .

مصلح اجتماعى وجه الشباب نحو الدروب السليمة الاهداف ، وشجعهم على الدفاع عن كيان الاوطان ، ووضع بين أيديهم امثولات كانت لتطوير حياتهم القومية ..

على ضفاف النيل ، مات فجاة الدكتور بشر فارس ، سكرتير المجمع العلمى المصرى ، وعضو معهد الآثار الفرنسى ، وعضو جمعية نقاد الفن العالميين بفرنسا . وقد روع نبا وفاته الاندية الادبية . ولكنه ترك لمكتبات الضاد الثقافية ذخرا لا يتفـانى ، مهما عصفت الاهـواء وازدادت تقلبـات السنين .

غيره من أدباء الطليعة فى الامصار العربية عنى بفن واحد من فنون الحرف . اما هو فقد شذ.

لقد طرق المسرحية ، ونظم الشعر ، وبحث فى الدين ، وكتب فى النقد ؛ وعالج القصة ..

فى عالم الغرب تبوأ مكانة أدبية حسده عليها رجالات الكلمة المنمقة هناك . لقـد كان عـلى اطلاع واسع بالتيارات الادبية ، المتعددة المشارب فى اجواء باريس وروما ولندن ونيويورك .. كما انه زار أكثر من عاصمة غربية ، واختلط بادبائها ، ووقف على موجا تالادب الحديث ونزعـاته .

كتب بالفرنسية كاورع ما يكتب واحـد من ابنائها . وكتب ليعرف ادبنـا العربى الغنى الى الامم المتحضرة ولا عجب فهو خريج جامعة السوبون فى باريس ، وتلميذ المستشرقين لويس ماسينيون وجـود فروا ديمو مبين وفوكونيـه . وقد ثبت قواعده هنـاك ، اول ما ثبت ، عـلى اطروحته « العرض عند عرب الجاهلية » .. ومن مؤلفاته بالفرنسية « قصص ، مفترق الطريق . المشكلات التى تعرض للكاتب العربى الحـديث ، كتاب الترياق » الذى نـال جـائزة اكاديميـة الفنون الجميلة بباريس عام 1954 . وفى نيويورك صدر له بحث بعنوان « مخطوط عربى مزوق فى النبات » وفى برلين كتاب بعنوان « طلاسم مصورة » .

أما مؤلفاته العربية ، فانها عديدة ، منها « سوء تفاهم » مجموعة قصص ظهرت فى القاهرة عام 1942 ، وقد أخذ جميع مواضيعهـا من البيئـة التى كـان يعيش ضمن اطـوارها ، « سر الزخرفة الاسلامية (فى فلسفـة الفن) » . « مباحث عربيـة » وهـ وسلسلـة مقالات فى اللغـة والاجتماع « مفترق الطريق » مسرحية بفصل واحد مع توطئة صدرت عام 1938 بالقاهرة ، وفى سنة 1950 مثلت بالفرنسية فى باريس ، وبالالمانية فى مدينة سالزبورج أثنا مهرجانها واسمعه يتحدث الى القيتار فى احدى مسرحياته :

« أيهـا القيتـــار
رفرفرت نشيدا هائما هلعا
فررت من أوكـــار
علقوا بها قصيدا رددوه فى كعبة الوطن »

ويناجي هذا القيتار الذى كان يطرد عنه هموما ، ويضفى عليه الوانا من الغبطة والانشراح :

« ياأخى فى الظما
رجع اهازيج انهار صدقت عندها الاساطير
غمرت حلم الاوتار فماجت حرة مرحة
تشيع جهادى فىمهاوى قفار
نصبت فيها الاخطار نصيبى الخطير »

وبعد ، ان المصاب لفادح . خسارة الادب بهذا الانسان المعطاء كبيرة ، ولكنه فى خلود يبقى ذلك الاديب الخلاق واللغوى البصير ، والشاعر الذى ينضب ينبوعه ، والمسرحى الذى حمل العالم الغربى على الهتاف لمقدرته الفنية ..

ثبت لمؤلفات بشر فـارس

فى اللغـة العربيـة :

« مفرق الطريق » (مسرحية فى فصل واحد مع توطئة) القاهرة 1938 ، الطبعة الثانية مزيدة ، 1952 ـ مثلت بالفرنسية فى باريس سنة 1950 ، وبالالمانية فى سالزبرج أثناء مهرجانها سنة 1951 ، وفى فيينا سنة 1952 ، وفى منستر ـ وسلفتن بالمانيا سنة 1954 .
« سوء تفاهم » (مجموعة قصص) القاهرة 1942 .
« كلمة الشاعر » فى « المقتطف » ابريل 1945 .
« الظلال فى الادب » (فى الكاتب المصرى) فبراير 1948 .
« سر الزخرفة الاسلامية » (فى فلسفة الفن) .مع ترجمة باللغة الفرنسية ، من «منشورات المهد الفرنسى» القاهرة 1952 .

« ديوان شعر » الى الطبع .
« مباحث عربية » (فى اللغة والاجتماع) القاهرة 1948 .
« اصطلاحات عربية لفن التصوير » من (منشورات المجمع العلمى المصرى) القاهرة 1948 .
فى الفرنسيـــــة :
« قصص » فى (كراسات الجنوب) مرسيليا 1947 ، وصحيفة «بارول فرانسيز» 1948 .
« مفرق الطريق » فى (المجلة المسرحية) باريس 1950 ، الطبعة الثانية ، « مطبعة مصر » القـــاهـــرة 1952 .

« جبهة الغيب » منشورات دار شعر بيروت 1960

« العرض عند عرب الجاهلية » (بحث فى علم الاجتماع) باريس 1932 .
« المشلات التى تعرض للكاتب العربى الحديث» فى (مجلة الدراسات الاسلامية) باريس 1936
« مباحث » فى (تكملة دائرة المعارف الاسلامية) ليدن 1936 .

« مكارم الاخلاق » (عبارة اسلامية أخاذة) « مجلة الاكاديمية الوطنية للعلوم » روما 1937 .
« منمنمة دينية تمثل الرسول من اسلوب التصوير العربى البغـدادى » مـع موجز باللغة وذلك عام 1951 وفى عام 1953 مثلت هذه المسرحية فى فيينا . « جبهة الغيب » مسرحية تروى احدوثة شرقية فىمراحل خمس ، طبعت ببيروت عام 1960 . « سوانح مسيحية وملامح اسلامية فى مخطوط عربى مزوق فى القرن السابع » .

تقرأ هذه المؤلفات فاذا المعانى فيها على رحابة وعلى مقربة من يديك . ولابـد أن تسلـم بعبقرية واضعها ، وتنحنى أمام عظمة الكلمة عنده وسحرها المتغلغل .

فالدكتور بشر فارس ينحت جملته ، ويدقق فى تكوين الفكرة ...

أما فى الشعر الحديث فانه أثبت فيه مقدرة وهو يغوص فى مجالاته . ورغم أنه ما كان غزيرا فانه بقى صورة حية لواقع لمسناه ..

اسمعـــه يرثى أمـه :

لولا أنت ما أتت الدنيا الينا
هذبتها فلا تغافلنا بالمعول الاخرق
ياحجر السماحة من بعدك هزل معنى العطايا
كانت تطلع عرائس فى هفائف نور من منجم حبك . »

وبعد أن يتحدث عن فضائلها وحنانها ، ويذكر الفراغ الذى سيتكون بعد الفراق المؤلم ، يقول :

« ألقى بأهداب البساط ـ نستعصم بهـا فى صحراء الغرور يا واحـة جذبهـا الحـق الى بستـان الامان .

الاهداب .. فتات مائدتك مآدب ـ موكب فى مجاهل الصدور »

والدكتور بشر فارس فتن بجمال المرأة . فانبرى يصور هذا الجمال ، ويدفق عليه نعوتـا طرية وجذابة ، ويحيطه بالوان زاهية مغرية . ولا عجب فالمرأة قد أثرت عليه . قال لى عندما زار بيروت منذ ثلاثة اعوام :

ـ ككل بشر له احساس حى ، أرانى مدينا للمرأة بجملة من الخلجات والتاملات بل اعترف بأن للمرأة يدا على من حيث انها بفيض رهافتها أخرجتنى من الكثافة الى الرفاهية احيانا .

اسمعه يصف غانية ركع على قدميها الرجال :

« مالت على ثدى الوف
تســائله هل تلـف
من زور اغماض العزوف
أو غيـظ عـزم الكلف
او فن خطاف القطـــوف »

ثم يتابع وصفه للثدى الجوعان فيقول :

« من زور اغماض العزوف
يلم تحت الهـــدب
حســرة جوعـان انــوف
تفيض نارا تدب
ولهى الى الضلع العطوف »

العربية من (منشورات المجمع العلمى المصرى) القاهرة 1948 ·

« مخطوط عربى مزوق فى النبات » فى مجموعة نيويورك 1952 ·

« كتاب الترياق » (مخطوط عربى مزوق من خاتمة القرن 12) مع موجز باللغة العربية · من (منشورات المعهد الفرنسى) القاهرة 1953 ـ نال هـذا الكتـاب فى باريس سنـة 1954 جائزة اكاديمية الفنون الجميلة وجائزة جمعية مصر ـ فرنسا ·

« الفن القدسى فى التصوير الاسلامى الاول » بدمشق فى مجموعة ج 2 بيروت 1957 .

« طيسم مصورة » فى برلين 1959 ·

« سوانح مسيحية وملامح اسلامية فى مخطوط عربى مزوق فى القرن السـابع » مـع موجز باللغة العربية · من (منشورات المجمع المصرى) 1961 ·

◆ جاء فى مجلة المكتبة العراقية ما نصه :

« يستعد السيد أبو القاسم محمد كرو اصدار مجلة ثقافيـة جامعـة اسمهـا (الثقافـة) وشعارها هل نؤدب الثقافة ام نثقف الادب »

بدون تعليق ·

◆ حتى الاسماك تتحدث بينها

أكد اخصائى معهد البحوث للصيد البحرى بجيورجيا (الاتحاد السوفياتى) أن نوع الاسماك يمكن تحديده استنادا الى الاصوات التى تحدثها · وهكذا فان سكان البحر يتخاطبون فيما بينهم ولكن فى أوقات معينة من غروب الشمس الى منتصف الليل · وبهذه الصفة يمكن معرفـة أماكـن الاسماك وانواعهـا ·

فهل يصح فى هذا المجال قول المتنبى : « فما يفهم الحداث الا التراجم » ؟

◆ أهدانا السيد صلاح الدين بن حميدة كتابه ستون يوما بين بردى والنيل ، نتمنى لكتابه الرواج ونترقب منه المزيد بمثل هذه الكتب القيمة الحية ·

الفهـرس العـام للسنـة الثامنـة

1 ـ فهرس الموضوعات

مـلاحظـة : راجع القصص تحت مادة : **القصة** ـ والقصائد تحت مادة : **الشعر** ـ والروايات تحت مادة : **مسرحية** ـ والمطالعة تحت مادة : **مطالعات** وندوة القراء تحت مادة : **ندوة** ٠

2 ـ فهرس الكتاب